لحظة دهر

تصميم الغلاف

محمد الحفري

لحظة دهر

مجموعة قصصية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٦م

لحظة دهر: مجموعة قصصية / محمد الحفري.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م .- ١١٢ ص؛ ٢٠ سم.
(قصص؛٣٩).

١- ٨١٣.٠١ ح ف ر ل ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦١ ح ف ر ل ٣- العنوان ٤- الحفري ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص قصيرة
«٣٩»

الإهداء

لكل الهزائم .. لكل الخيبات .. لك إدريس شقيقي الغالي وأنت تتعثر بخطواتك بيننا فاقداً بصرك منذ الطفولة البكر.. لك وقد صارعت الخبيث طويلاً وهو ينهش بدمك وجسدك وروحك.. لك الآن وأنت ترتاح في تربتك إلى جوار كل الأحبة الذين رحلوا قبلك..

لحظة .. دهر

مسكون بقبر وشاهدة منذ طفولتي الأولى، كم من السنوات غبت عن ذاك القبر لا أدري لكنني هذه المرة أجد في نفسي شوقاً كبيراً إليه، ينتابني شعور طاغ يحرضني كي أزوره، إحساس فظيع يدفعني لذلك، كأن صاحبه يستنجد بي ويطلب مني المساعدة، حاولت منع نفسي لكنها ظلت تتمرد عليّ وبقي فكري مشوشاً يهجس بذلك الأمر، ما الذي يدفعني للعودة إلى «ذرعان» في هذا الوقت بالذات لا أدري، ماذا أريد منها ولم يبق لي فيها سوى قبر لرجل غادرنا في يوم مولدي وقبر آخر لامرأة توسلت كثيراً إلينا كي نكون عوناً لها في سنواتها الأخيرة، إلى أين تمضي إذاً يا محمود نايف العبود؟.. ماذا بقي لك في «ذرعان» يا رجل؟.. لا تقل لي بأن شيئاً ما كان لك هناك، وإذا مضيت في طريقك لا تلتفت يميناً ولا يساراً، بيتكم لم يعد

بيتكم و«ذرعان » لم تعد «ذرعان» لم يعد لك فيها موطئ قدم فإلى أين تريد أن تشد رحالك يا رجل وأنت متعب وعائد من سفر ويجب عليك أن تعد نفسك لسفر آخر؟..

شقيقتي تهاني هي من أبلغتني بأن التوسع الجديد للطريق المؤدي إلى المقبرة في «ذرعان» قد ردم بأتربته وحجارته الكثير من القبور ومنها قبر والدي الشهيد، هي لم تر بعينيها ذلك لكن زوجها هو الذي أخبرها بالأمر..

إذاً عليّ أن أعود وحيداً إلا من الحزن إلى «ذرعان»، أعود إليها كما خرجت منها أول مرة، لم يرافقني سوى ظلال الأشجار الراكضة على جانبي الحافلة..

نزلت مسرعاً عند أول الشارع الذي شهد طفولتي، البلدة لم تعد بلدة، تحولت خلال عمر من الغياب إلى ما يشبه المدينة، كنت غير خائف أو مكترث بشيء، ما كنت أتمناه فقط لو يعلم ذلك الشارع بأنني عدت إليه، لو يعلم كيف تشتاق وتحن الأرجل الحافية التي جابت كل شيء فيه يوماً وكيف قاست مسافاته بخطواتها الصغيرة، لو يعلم بأنني أتمنى ذلك الآن لولا

هـذا الإسـفلت اللعـين الـذي حـل فـوق ترابـه، كـدت أعتـذر للأستاذ عارف وأنا أبصر الغرفتين الحجريتين اللتين كانتـا مقـراً لتعليمنا الابتدائي وكـدت أركـض كـي ألتحق بالـصف لكنني قبل الدخول يجب أن أمسح وأزيل القسم الأكبر مما علق عليهما من طين ويبقى ما تبقـى ليجف ونفركـه فيما بعـد كأنـه تـراب، كدت ألتصق بالأستاذ خليل وهو ينشد معنا صباحاً.

«بلاد العرب أوطاني» ما زلـت شـاكراً لـك يـا أسـتاذ خليـل عـلى تواضـعك معنـا وشـاكراً لـك قبولـك اعتـذاري في ذلـك الشتاء القاسي حينما أبلغتك بأن قطعة الحطـب التي كـان لزامـاً على كل واحـد منا أن يجلبهـا معـه صبـاحاً مـن أجـل المدفأة قـد سـقطت منـي في أحـد مـستنقعات ذلـك الـشارع، دمعـة امتنـان وتقدير لك يـا أستاذ عـارف وأنـت تهـز بعـصاك الغليظة أمـام وجوهنا طالباً منا المزيد من المثابرة والاجتهاد وإلا فعصاك التي كتبت عليها بخط عريض «أم غـضبان دواء للكـسلان» سـتأكل حتى تشبع من يدي أو ربما قدمي كل مقصر..

لم يبـق مـن بيـوت شـارعنا القـديم وغـيره مـن الـشوارع إلا ما ندر والتي كشفت عوراتها الأبنية والطرق الجديدة المحاذية

فبدت كخرائب عفا عليها الزمن أو كثآليل تشوه وجه الحضارة الإسمنتية، اللوحة المعدنية التي كنت أباهي بها أقراني أيام الطفولة والتي كتب عليها اسم والدي في يوم ما لم أعثر لها على آثر ولحظتها شعرت بدموع حرى تطفر من عيني وتسبب الكثير من الغباش وعدم الوضوح في الرؤيا وأنا أقرأ على لوحة كبيرة الاسم الجديد للشارع ..

عبرت مسرعاً من جانب بيتنا القديم أو المكان الذي كان فيه حيث ربض بناء شامخ، كان في الحلق غصة وعلى الوجنتين آثار لدموع قد جفت لتوها ترافقت مع وهن في الروح ورجفان في القدمين، مراراً كدت أضيع الطريق الذي يوصلني إلى هدفي المنشود لولا استعانتي بما تبقى من حجارة قديمة وخرائب لم تنقل بعد إلى خارج المدينة، الأشجار التي كانت تحيط بالمنازل من كل الجهات وتجعل البلدة وكأنها جنة صغيرة لم يبق منها إلا القليل وكأن يداً غادرة كانت تتربص بها لتجهز على معظمها لتضع بدلاً منها أبنية وكتل إسمنتية مرتفعة، في أماكن متفرقة شاهدت أبراجاً شاهقة تشبه تلك التي رأيتها في بعض

العواصم، المجمعات التجارية المتخصصة بكل شيء انتشرت هنا وهناك، البلدة التي خبرتها وعاشت في داخلي غدت الآن مدينة أكاد أتوه عند كل منعطف فيها، كانت سابقاً مسيجة ومملوءة بالخضرة والماء كثوب دائم تلبسه واليوم استبدلت ذلك بكل مستلزمات العصر وبالبؤس والغبار ثياباً مزيفة تناسب عصرها الجديد ..

«ذرعان » تبدو وكأنها تنهض من سبات طويل، مواد البناء قد تجدها ملقاة على جانبي الطريق وأي حركة للهواء الناتج عن مرور الحافلات تثير من خلفها زوابع لا تنتهي من الغبار، حركة العمال دؤوبة لا تتوقف ولا تنتهي.

رئيس المجلس البلدي في «ذرعان» قال لي بأن الطريق لم يعترض عليه أحد وهو الآن مستملك للبلدية وقد اضطرت لهذا التوسع لأن الطريق القديم لم يعد يفي بالغرض .

عرجت في طريقي على مكتب مفتي المدينة، لفة رأسه وقسمات وجهه قالت لي كم هو طيب هذا الرجل لكن تلك القسمات تبدلت عندما حدثته عن نيتي بنقل رفات والدي إلى

مكان آخر، بداية قال بأننا يجب أن ندع الأموات في رقادهم ولا نفسده عليهم ثم أردف ويده المتشنجة تمتد أمامه: هذا حرام ولا يجوز ..

قلت : حتى لو دثرتهم حجارة الطريق وأتربته !..

دق بعصبية على طاولة مكتبه:

- حتى لو أصبحوا تحت الطريق ومشت الناس من فوقهم..

.. تركته ومضيت وقد حفر الموقف في عميق روحي ليستنزف ما بقي من أمل ويفجر هذا الحزن سيلاً من الدموع ثم رحت أبحث عن شاهدة لقبر يرسم معالمه داخلي منذ الصغر وجسدي يهزه النشيج وكأنه نخلة تضربها العواصف ..

من بعيد وقبل أن أصل كنت أعتذر من والدي ووالدتي عن كل ذلك الهجر والغياب الطويل الذي كنت فيه رغم المسافة القصيرة قياساً لما قطعته خلال رحلة عمري، تلك المسافة التي لا يتجاوز قطعها بالحافلة عن الساعة ونيف.. ألعن الغياب الذي كنت فيه، أحياناً أتوقف عن المسير لألعن نفسي فما الذي جعلني أغيب عن «ذرعان» عمراً أو يكاد رغم إن ساعات

قليلة كانت ستجعلني أعرف كل شيء يحدث فيها؟.. لو كنت موجوداً كنت سأفعل شيئاً على الأقل، الآن يمكن أن أفعل، يجب أن أفعل ..

تربعت الحجارة التي أزيحت عن جانبي الطريق فوق قبر والدي ولم يعد يظهر منه سوى الشاهدة التي كتب عليها اسمه، كدت أختنق أو كاد أن يغمى عليّ وأنا أرى والدي مطموراً بتلك الأكوام من الحجارة والأتربة وكدت أعيد صراخي الطفولي القديم طالباً منه أن ينهض، أردت أن أكون أكثر جرأة عليه هذه المرة وأن أقول له :

«أنت رجل غير مرغوب به، أحمل كفنك والرصاص الذي أخترق جسدك وتعال معي، هنا لا أحد يهتم بجراحاتك ولا بعدد الرصاصات ولا بمن أطلقها عليك، لم يعد لك مكان هنا فانهض وأبحث عن مكان آخر، ذرعان لا تطيقك ولا وقت لديها لاستضافة الشهداء وإكرامهم، هي مشغولة عنك اليوم بالمقاولين والتجار والسماسرة» ..

كنت أبكي بحرقة وأنا أردد تلك الكلمات وما كنت لأتوقف عن ذلك لولا أنني لمحت على بعد أمتار من القبر ظل

امـرأة تتكـئ عـلى عـصاها التـي حاولـت أن تـشير بهـا نحـوي لكنها أعادتها إلى الأرض خشية السقوط، كانـت كلماتها تحمـل كـل عتبهـا القـديم وكانـت تنهـاني عـما أفكـر فيـه، اقتربـت منهـا أكثر لعلي استرضيها وألامس وجهها الذي افتقدته وأحـن إليـه على الدوام، سراباً ما قبضت عليه يداي غـير أنهـما لامـستا ترابـاً طرياً وناعماً فيه كل عطاء الأرض وخفقان قلبهـا وخوفهـا عـلى أبنائها من أن يضيعوا فوق مسالكها الوعرة ...

حفنـة تـراب واحـدة كانـت كـل هاجـسي ومطلبـي في تلـك اللحظـات، أذروهـا فـوق رأسي مثـل عطـر أسـتحم برائحتـه واحـتفظ بـه في داخـلي إلى الأبـد، في صـندوق قلبـي العتيـق مـع صورة عينيها ومقعدها الذي طالما جلست عليه ..

بدت القبور أمامي وكأنها دثـرت أو كأنـه لا قبـور هنـا أو ربـما هكذا تخيلت، أمامي فقط ساحة ممهدة خالية من كل شيء...

هدأت قليلاً، درت حول المقبرة دورة كاملة وعـدت إلى قـبر والـدي أو إلى حيـث بـدأت وقـد تملكنـي فكـر وشـعور عبثـي فسارعت لتصديقه وهو أن أحمل هذه الشاهدة المركبة على قـبره معي، تخيلت أمي تبتسم لهذه الفكرة فقـد تركنـا قبرهـا مـن دون

شاهدة وهي بعد فعلي هذا ستتساوى مع والدي، إذاً عليّ التنفيذ، سأبدأ بتفكيكها على عجل وسآخذها معي وحيث أزرعها يكون قبر والدي، قلت هذا في نفسي وأردت أن أباشر عملي على الفور عندما سمعت صوت سحب أقسام سلاح آلي ترافق مع أصوات أخرى تشبه حمحمة الخيول «سنقتله ولا ندعه يؤذي قبر الشهيد».

التفتُ على عجل إلى مصدر الصوت فلم أشاهد شيئاً، جلت المكان بعينين حذرتين وقلب متوجس، كان خالياً إلا من هسيس الأعشاب اليابسة التي تُحرك بعضها الريح وتقلب بعضها الآخر.. قلت:

ما بك يا رجل؟.. هل أخافك خلو المكان أم هي رهبة القبور؟.. لوحدك كنت تذرع هذا المكان طولاً وعرضاً فما الذي تغير؟.. هل تحول قلبك عند الكبر إلى واد يفزعه الصدى؟.. هيا وأنجز ما تنوي إنجازه دون تردد هيا، لن يحتمل الأمر سوى بعض حركات وينتهي كل شيء حيث تكون تلك اللوحة الرخامية بين يديك تحملها أين شئت.. مع الحركة

الأولى لتلك الشاهدة انفجر ألم فظيع في رأسي وانتابني إحساس غريب.. ما هذا ؟ هل كان حلماً ما حدث أم هو زمان جديد يبدأ؟. رأيت الكثيرين من أهل المقبرة ينهضون بثيابهم البيض يهللون لاستقبال قادم جديد، رأيت بينهم أبي وأمي.. أبي كان فرحاً رغم ما على جسده من جراح، ضموني جميعاً وحلقوا بي، في تلك الأثناء كانت تودعني كل العيون الجميلة التي رأيتها وما زالت ترقص على إيقاع مأساتها، نظرت خلفي وبقايا دماء ما زالت تتقطر من فجوة تركتها رصاصة برأسي ومثل نقطة فوق ماء البحر ظهرت لي بلدة صغيرة مليئة بالخضرة والماء عندها لوحت «للذرعان» الجنة المفقودة ...

القصة الفائزة بالمركز الأول
لجائزة البتاني للعام ٢٠١١م

«شعيلة»

كغزالة مذعورة أفزعها رصاص مفاجئ استفاقت من غيبوبتها وهو يردد: «يا شعيلة قومي.. قومي على بير المي.. يا شعيلة قومي» كرهت هذه الأغنية كره العمى من فمه الأدرد وكم كانت تحبها أيام «تعاليلهم» الليلية التي تسبق الزفاف بعدة أيام، جارهم حمدان كان يغنيها من أجلها نهاية كل سهرة، كانت تسر ويسعد قلبها بذلك، تذكر جيداً تلك الدبكات وأهمها «الحبل المودع» التي يشارك فيها الجميع على أنغام الشبابة وأيادي الشباب والصبايا المتشابكة بحميمة مدهشة وصوت حمدان الشجي يطرب قلوبهم ويجعلها ترقص فرحاً...

«شعيلة».. نادى الرجل الأدرد باسمها فارتجف جسدها كمن مسته الكهرباء، لاحظ ذلك فسحب نفساً من نرجيلته،

نفث دخانها في فضاء الخيمة وراح يضحك، شعرت بالقرف ثم انتابها خجل تمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها لتواري نفسها عن ذاك الكهل الذي كان يرمقها بنظراته حيناً ثم ينشغل بنرجيلته حيناً أخر ..

كانت حياتها بسيطة وعذبة، تستيقظ صباحاً لتصطحب الأغنام مع والدها إلى المراعي وكثيراً ما كانت تذهب وحدها حين ينشغل والدها بأعمال أخرى وهناك في البراري تلتقي بحمدان الذي يغني لها أجمل الأغنيات ويعزف لها على شبابته أجود الألحان والبراري أرضاً واسعة لقلبيهما، بعدها يعودان إلى بئر الماء، يتولى بساعديه المفتولين انتشال الماء منه وتفريغه في الأواني المخصصة لشرب المواشي وتجلس هي قريباً منه ترقبه بنظرات محب وتستمتع «بدندناته» وصوته الجميل، كان يعدها أن يجمع لها الغمام ويأتي لها بالغيم لينثره بين يديها زهوراً وروائح شذية وكان يقول بأنه سيغني لها أجمل المواويل وسيردد لأجلها أروع العتابات وسيسكنها أفخم البيوت ويريحها من هذا العناء إن هي صارت له وكانت

سعيدة جداً بكلماته تلك، تصدق كلامه وتثق بوعوده رغم معرفتها بأنه لا يملك إلا شويهات قليلة وكان أبوها سيوافق على حمدان وكادت «شعيلة» تصير من نصيبه..

من جديد تنبهت للرجل الأدرد يجلس بالقرب منها وهو يسعل بشدة، مد أصابعه وحرك بها جمر نرجيلته، كانت مثل لحاء شجرة يابسة وحين فرد يده أمامها بدت مثل صحراء جدباء لا تنبت إلا الرمل والجفاف.. شعرت بغباش على عينيها، رغبت بالتقيؤ لم تستطع فتمنت لو تصحو وترى بوضوح ما الذي يحدث معها بالضبط ..

هي تذكر بأن حياتها مع أهلها بقيت هادئة وادعة لوقت مديد لم يعكرها سوى وصول «طويل العمر» الذي اصطف بسيارته الفارهة ذات الدفع الرباعي أمام خيمتهم في أحد الصباحات الباكرة، من أين جلبه والدها وكيف تعرف عليه؟ لا تدري، لكنها تدري بأنه أغرى والدها بالمال والاستثمار وأقنعة أن يستولي على بئر الماء ليقيم عليه مزرعة كبيرة يسورها

بالأسلاك الشائكة ويبني داخلها قصراً منيفاً واسع الشرفات وبعدها أجبر الأقارب والجيران على مغادرة المكان ليكون ملكاً خالصاً له مستخدماً في ذلك رجالاً أشداء يملكون القوة والسلاح وفيما بعد أدركت «شعيلة» بألا شيء يقدم مجاناً وبأن جسدها وكل عمرها سيكون استثماراً «لطويل العمر» لقاء ما قدمه للوالد ولمَ لا وهو الذي نقلهم من عالم الخيام إلى عالم القصور ومن حياة البساطة إلى الأسوار المنيعة والشرف الكاذب وعلى ما تذكره بأن «طويل العمر» لا يختلف كثيراً عن هذا الأدرد الجالس بالقرب منها لولا سمنته وملابسه الأنيقة وطقم أسنانه اللامع ..

غنى الرجل الأدرد بصوته «النشاز» تلك الأغنية التي يتردد فيها اسمها كثيراً، سكت ليسحب إلى جوفه دخان نرجيلته ثم ينفثه في فضاء الخيمة التي بدا جوها ملوثاً بسحب منها، بعدها أطلق ضحكة مجلجلة طويلة لم تستطع أن تفهم معناها أو السبب الذي دعاه إليها غير إنها تذكرت بأن «طويل العمر»

وهو يجلس مع والدها في شرفة القصر كان يطلق مثل هذه الضحكة الماجنة في أوقات متأخرة من الليل ...

حين علم حمدان بالخبر جن جنونه وطار صوابه عندها تسلل إلى المزرعة ليلاً مغامراً بقطع أسوارها المنيعة لأنه وغيره ممنوع من دخولها عبر أبوابها الشرعية وعند بئر الماء التقى العاشقان كما كانا يلتقيان في أيام خلت، كم كان يعشق هذا البئر الذي حرمهم والدها منه وتركهم للجفاف والعطش، البئر و«شعيلة» بالنسبة لحمدان بمنزلة واحدة وإن استغنى عنه تلك الفترة فهو لابد عائد إليه طال الزمن أم قصر وعند البئر تعانقت الأيدي كما الأرواح واختلطت الأنفاس بمائه، هي بالنسبة لحمدان شعلة الروح ومنية النفس لا يستطيع العيش من دونها ولا يتخيل امرأة تكون بديلاً عنها و«شعيلة» عاشقة حقيقية لحمدان تذوب فيه رغم قلة ذات اليد حتى النخاع، هو بالنسبة لها عود الرمان البديع تقبل به كل البنات دون تردد ولحظة معه بالنسبة لها تساوي ذلك

الخرف «طويل العمر» الذي أطلق كرشه عشوائياً يملأه «بالكبسة» نهاراً وبالشراب ليلاً وتختصر حياته في كلمتين «الفرج والكرش»..

«شعيلة» وحمدان قصة حب رددها في زمن مضى كل العشاق الذين مروا على ذلك البئر وسيرددونها فيما بعد عندما يعود البئر كما كان ملتقىً للحب ومصدراً للعطاء.. في لحظة وجد وجنون قرر العاشقان أن يفرا بحبهما إلى العالم الواسع حيث تغرد البلابل وتزقزق العصافير دون خوف ..

نظر إليها الرجل الأدرد بتمعن، عيناه كثقبين صغيرين في تجويف صخري غارتا في وجهه العريض حين أطلق ضحكته المعهودة، ترك نرجيلته خلفه وزحف ببطء نحوها، حاولت أن تبتعد عنه حتى أخر الخيمة لكنها كانت شبه مخدرة والجسد لم يطاوعها كثيراً في ابتعادها المأمول، هو أيضاً تراجع قليلاً حين شاهد الزهرة التي قطفها بالأمس تميل نحو الاصفرار والذبول..

بعد ساعات من هربها مع حمدان علم والدها بالأمر فاستنفر الفرسان يشحذ هممهم لغسل العار الذي سيلحق به وفي الحال راح رجال أبيها يجوبون البراري بسياراتهم الحديثة يبحثون عن صبية عاشقة كحمامة فرت تحت جنح الليل مع شاب أحبته وتعلقت به روحها أشد تعلق.. شقشق الضوء والتعب بلغ من الحبيبين مبلغه عندها قرر حمدان أن يصعد تلة صغيرة يتبين من فوقها معالم الطريق ولم يكد يفعل ذلك حتى وصل إليه الرجال الباحثون عنه وعن حبيبته، لم يسألوه ولم يعطوه وقتاً كي يقول كلمة واحدة بل أطلقوا عليه غضبهم ليسقط مجندلاً بدمائه بعدها داسوا بأحذيتهم على الجسد النازف عشقاً ثم تابعوا بحثهم في المكان الذي توقعوا بأنها لم تبتعد كثيراً عنه، كانت في مغارة عند إبط التلة ترقب بالقلب حبيباً مات تواً لأجلها، كان بينهم وبينها لحظات ومسافة نظرة وكانوا سيقبضون عليها ويلحقونها به في الحال لولا أن رجلاً كبير السن أدرد الفم لا يدرون من

أيـن ظهـر أمـامهم في هـذه الـبراري حيـث أخـبرهم بأنـه شاهد منذ قليل فتاة تـركض كظبية مجتـازة الـوادي المجاور لتصل إلى الـسهل المقابـل، لم يتحقـق الرجـال مـن كلامـه بـل سـارعوا نحـو سياراتهم الحديثـة لينطلقـوا حيـث أشـار بينـما سارع هو إلى المغارة ليطلب من «شعيلة» أن تركب خلفه على الجواد ليطير بهـا في الحـال إلى المـضارب ويخفيهـا بـين حريمـه لتكون بعيدة عن رجال أبيها الذين فتشوا المضارب بعد ذلك مرات ومرات ...

لأيـام عديـدة حـاول الأدرد أن يقنعهـا كـي تكـون زوجـة رابعة له وذلك برأيـه أفـضل حـل لفتـاة فـارة مـن ذويهـا وقـد تلقـى المـوت في حـال عثـورهم عليهـا لكنهـا حرمـت عـلى جـسدها الرجـال مـن بعـد حمـدان، كانـت تحـاول أن تهـدئ اندفاعـه وتخفيـف رغبتـه الجامحـة فيهـا بقولهـا: «لقـد أنقـذت حياتي.. أنت بمثابة عمي» وكان يردُ بجموح أكثر حدة وهـو يشد قبضته ويـضرب بهـا عـامود الخيمـة مـردداً: «عمـك عـم

يا بنت» وفي تلك اللحظات كانت الخيمة تكاد تسقط عليها وعليه وعلى نسائه لولا أنه يقبض على العامود ويعاود تثبيته من جديد ..

تدهورت صحة «شعيلة» مذ دخلت لاجئة هذا الشادر وعندها أكد الأدرد بأنها مرعوبة مما حدث ولا بد أن تشرب منقوع الأعشاب من «طاسة الرعبة» حصراً ولم تتوان زوجته الكبرى إذ حضرت كل شيء على عجل لتشرب منه المريضة التي غرقت بعد ذلك في نوم طويل أشبه بالغيبوبة..

تنحنح الرجل الأدرد ثم سعل طويلاً وراح بأصابعه الخشبية ينكش رأس نرجيلته، يرمي تبغها القديم ويستبدله بجديد.. شعرت بنفسها وكأنها تستفيق من موت زحف فوق روحها، فجعت بجسدها مكشوفاً في أماكن عديدة، حاولت أن تشد الثياب لتستر صدرها وساقيها لكن ثيابها الممزقة لا تفي بما تريد.. ضحك الأدرد ضحكته المجلجلة وهو يراها على هذه الحال ثم راح يغني: «يا شعيلة قومي»

وفكـرت «شـعيلة» أن تقـوم بالفعـل غـير إن نـساء الأدرد الـثلاث دخلـن الـشادر يزغـردن ويبـاركن مـا حـدث بينهـا وبـين زوجهـن، فتحـت فمهـا اندهاشـاً متـسائلة عـن الـذي حـدث فأجابهـا الأدرد بقولـه: «اطمئنـي يـا شـعيلة، كانـت مجـرد نـزوة.. بعـد قليـل سيحـضر الـشيخ ونعقـد القـران لتكوني ملكي وبالحلال هذه المرة» وعنـدها عـادت «شـعيلة» إلى رقـدتها وأغمـضت عينيهـا عـلى عاشـق اسـمه حمـدان لم يمسسها يوماً إلا بشغاف قلبه.

ذكرى وعبرات

جلس يرقب ذلك الوادي الذي عشقه منذ نعومة أظفاره حيث جال بناظريه على حوافه المعشبة، كان على حافة العمر، شعر بالحسرة لأن الكرسي الجالس فوقه يبقيه محدود الحركة، تمنى لو يستطيع أن يقوم ويركض على هذا الطريق المعبد كما أيام زمان، تمنى لو يقفز على الصخور المحاذية للطريق، ينتقل برشاقة من واحدة لأخرى ليرقب أشجار الوادي ودروبه المتشعبة، يستمتع بزقزقة العصافير وهي تنشد للحياة في مثل هذا الوقت الصباحي، لو يسلك ذاك الدرب الملتوي الموصل إلى عين الماء في منتصف الوادي بالتأكيد كان سيشرب منها حتى يرتوي وسيغترف بيديه من مائها ليغسل وجهه ويبلل جسده ثم يجلس بفرح عند جدولها المنساب عبر الوادي، داعبت وجنتيه نسمات صباحية شعر بها تصعد من أعماق الوادي لتخفف عنه الأحزان.. آه كم يعشق ذاك

الـوادي، حكايته معـه حكاية طفولـة لا تتوقـف ولا تنتهـي، فكـر للحظات هـل تخـون الأمـاكن عـشاقها أم الخيانـة طبـع رسـم عـلى قلـوب بعــض البـشر ليلونهــا بــالبغض والقتامــة؟.. بعــد غيابــه لسنوات طويلـة كـان أول مـا فعلـه بـأن عـاد إلى هـذا المكـان الـذي يجلس عـلى كـرسي فوقـه الآن حيـث قبّلَ يومهـا حجـارة الطريـق وعــانق بقلبــه الأشــجار والعــصافير ويومهــا أحــس بهــواء المكــان يلامس شغاف قلبه وبنبع من الحـب يطلـع مـن داخلـه.. لا يـدري من أين طلعت له تلـك الفتـاة وكـأنها حوريـة أخرجتهـا ميـاه تلـك الأرض أو حمامة انتقلت بين شجيرات الـوادي لتـصل إليـه حيـث قبلته بحرارة ونهم وبقي في دهـشته يـسطر الـصمت محـاولاً تـذكر ذلك الوجـه الجميل الذي قطـع عليـه خلوتـه وخشوعه في حـضرة المكان وجلاله وقبل أن يخرج السؤال من فمه قالت بأنهـا توقعـت أن يـأتي إلى هنـا فـور وصـوله مـن الـسفر وهـي تنتظـره مـذ كـبرت ونبتـت في داخلهـا الأنوثـة لتكـون لـه مـن دون الرجـال.. ذكرتـه بأنها ابنـة صـديقه عمـران فبكـى عليـه أشـد بكـاء وغـصت روحـه لأجله بالدموع ..

لم يكن ذاك الأسمر واسع العينين وصاحب الشعر الناعم صديقاً عادياً يمر كغيره مثل الغمام ويمضي لكنه صديقه الوحيد، أخاً عزيزاً استثنائياً في كل شيء ومحبته فاضت عليه مثل نهر متدفق غزير العطاء، يذكر جيداً ذاك العناق الدامع المرير الذي سبق توجهه نحو الطائرة المغادرة إلى البعيد، كان وداعه عظيماً وقاسياً كالموت هونته الأيام ومشاغل الحياة ليغدو مع الوقت جرحاً ينز بين حين وآخر.. توقع أن يلتقيه فور عودته من السفر لكنه وجده قد سافر إلى مكان لا عودة منه ولا رجوع فشد على الجرح محاولاً مداواته بالنسيان واستكمالاً لذلك لم يزر بيتهم ولا شارعهم وتجنب أن يلتقي أي فرد من العائلة، هو وعمران كان يقضيان أوقاتاً طويلة في هذا المكان وعندما تزوج صديقه وأنجب الصبيان والبنات كان يتركه مع زوجته ليلعب مع أولاده «الحجلة والاستغماية» ويركض ليسابقهم مسافات طويلة وقد اعتاده أبناء رفيقه كواحد منهم ولم ينظروا له قط بأنه رجل في سن والدهم، كان أحياناً ينافسهم في الغناء وكثيراً ما تجمعوا حوله على صخرة كبيرة وواسعة

لينادي عليهم مغنياً «يا ولاد محارب..» فيجيبونه بصوت واحد كفرقة غناء جماعي «لولا» يكمل لاهثاً وحين يرى تبرم صديقه وانزعاجه من ذاك الشغب ينادي من جديد محولاً الأغنية إلى مقصد آخر حيث يصيح بصوت أكثر علواً من ذي قبل «يا ولاد الكوكو..» فيردون بخجل «لولا» عندها يضيف «يلعن أبوكو» كانوا يدركون بأنه يقصد أبيهم في تلك الأغنية لذا ينقلبون على ظهورهم ضاحكين في نهايتها وبالرغم من صغرهم يعرفون سر تلك العلاقة وحجم المحبة التي تجمع بين الصديقين ...

أخذته العبرات على صديق شق الروح حين غادر وطلعت الذكرى بتفاصيلها الصغيرة دفعة واحدة، شعر بنعومة يدها وهي تمسح بمنديلها دموعه الناجية من بركان يغلي داخله، نظر إليها بامتنان وقال: «سلمت يداك يا ابنتي» أمسكت يده بحنان مفقود ثم قرصت خده كما كانت تفعل أيام طفولتها وقالت: «لست ابنتك، أنت لم تتزوج أصلاً ليكون لديك الأبناء» هز برأسه موافقاً فأردفت: «منذ سافرت وأنا أتابع أخبارك لحظة

بلحظة، أنتظرك بشوق ولهفة تكاد تحرقني إن لم تسكب عليها مياهك.. أراد أن يقول بأن كهوف الغربة قد شربت مياهه لكنه استدرك وهو يحاول أن يطلق ابتسامة فات وقتها وقال: «إن لم تكوني ابنتي فأنت ابنة أخي على كل حال» قالت بصوت حاولت ألا يكون مرتفعاً: «أخوك مات والبقاء لصاحب البقاء، أريدك أن تضمني كما كنت تفعل أيام زمان، أريد أن أغفو في حضنك وأتوسد ذراعك إلى الأبد».

جمدته الكلمات في مكانه ولم ينبس بأي حرف حيث راح يرقبها وهي تداعبه وتلاعبه، تدور حوله وتفعل ما يفعله الأطفال الذين كبروا وتدربوا جيداً على الحياة، كانت ياسمينة بعطر الياسمين جذابة وشهية تركض حوله كمهرة وتطل عليه كغزالة وتدرج بجانبه كطائر الحجل الباحث عن عش تفقس منه كل عام أفواجاً جديدة من الفراخ تستقبل الحياة بحب وشغف ودفعته دماء الشباب المتبقية في عروقه كي يوافق بعد أن سدت عليه الذرائع التي تمنعه من دخول جنتها الموعودة

ودخل بعد تردد هضابها وسهولها ووديانها وكانت جنة حقيقية ذات أنهر جارية وقطوف دانية وأشجار سامقة، ثمارها بديعة وأزهارها من كل جنس ولون وحاول جاهداً أن يكون فلاحاً نشيطاً يعرف كيف يرعى جنته بعناية فائقة ومتى يفلح أرضها ويتركها للشمس تعقم تربتها ثم يعود لسقايتها من جديد، حاول أقصى ما يستطيع لكنه فشل في أن يكون ذاك الرجل الذي تخيل بأنه قادر على القيام بدوره ووجد نفسه محكوماً بالزمن وقد أقعده فوق هذا الكرسي وحفر فوق وجهه أخاديد كثيرة وعميقة وكما ظهرت في حياته فجأة كذلك اختفت، انشقت الأرض وابتلعتها أو أنها عادت حمامة تسللت مع شجيرات الوادي ورجعت من حيث أتت، شعر للحظات بحركتها وكاد يجزم بأنه رأى طائراً أبيض اللون بحجم حمامة يرفرف مبتعداً عبر ذاك الوادي.. ابتسم من قلبه ملتمساً لهروبها العذر طالما بأن فارقاً شاسعاً بين الحلم والواقع وبين

الفكرة وتطبيقها ومن جديد داعبت روحه نسيمات الوادي الصباحية حاول أن يستنشق أكبر كمية منها قبل أن يدفع بكرسيه عائداً إلى المنزل وفي قلبه سعادة غامرة لا يدري سببها أو مصدرها في ذلك الصباح لكنه كان عاجزاً عن إيجاد السبب الحقيقي الذي يدفع بالإنسان إلى تربته الأولى ومائه الأول حيث مراتع الطفولة وملاعب الصبا ولماذا يشده الحنين دائماً لتلك الذكريات ؟..

قبر الجليلة

لم تكن العتمة قد بسطت سوادها بعد، كان الليل في أوله حين ولج صالح باب السور الذي حاول بهدوء ألا يكون صريره مرتفعاً يصل إلى البيوت القريبة منه، كان بطوله شبيهاً بالرمح لولا رأسه المحني نحو الأرض وكأنه سيجد فيها شيئاً يبحث دائماً عنه من دون أن يعثر عليه ولولا ظهره المقوس بفعل السنين وقهر الزمن، توقف للحظات، جال بناظريه على المقبرة وكأنه يتفقد كل لحد فيها ثم شق بخطواته درباً ضيقاً يفصل بينها، لامس أثناء سيره بعض الشواهد فبدا مثل درويش يتمسح بها جاعلاً من الحب طريقاً وهدفاً لا يبغي منه غير الوصال والحب حد ذاته، كان الجسد راعشاً واللسان كأنه يلهج بالبوح بينما سارت خطاه بخشوع نحو قبر زوجته

الجليلةً في الجزء الشرقي من القلب أو المكان لا تختلف الأمور لديه كثيراً فهو يعتبر نفسه من تراب هذه القبور وحجارتها وشواهدها وكل شيء فيها طالما بأن الجليلة حبيبة القلب وساكنته حطت رحالها هنا منذ عشرين خريفاً بدأت من روحه التي ذوى كل شيء فيها، لم ينقطع خلالها عن الزيارة ولو ليوم واحد، كان أحياناً يقضي عند قبرها ساعة أو ساعتين أو أكثر من ذلك وربما أقل في حين تمتد في بعض الأوقات إلى ليلة بأكملها ومع شروق شمس الصباح يغادر قبر الغالية إلى حيث لا يدري أحد، بعض أهل الحي أعتبره قبورياً أدمن العيش بين اللحود أو درويشاً تصدقوا عليه بالطعام وبعضهم قال مجنوناً أما القسم الأكبر فأكد بأنه واحد منهم اعتادوا عليه مع الأيام ويعتبر قدومه إلى المقبرة المجاورة للحي مصدراً للسعادة وفأل خير وبركة ..

لم يكن صالح يلقي بالاً لكلامهم أو يهتم بآرائهم أو حتى بأعطياتهم كان كل همه أن يزور قبر الجليلة كل يوم ولو لدقائق

معدودة يلقي خلالها عليها التحية ويمضي في حال سبيله، هذه الليلة بدا الأمر مختلفاً بالنسبة لصالح، لم يتوقف طويلاً عند القبور المجاورة لمرقد الروح بل سارع إليه وكأن شوقاً يغلي في داخله وبوحاً يشق صدره أو كأنها هناك تعطرت وتزينت وحضرت نفسها لاستقباله، هذه المرة ارتدى أجمل ملابسه وفوقها معطفه الطويل ووضع على ظهره حقيبة مليئة بحاجاته وكأنه اعتزم سفراً طويلاً ويريد للقائه مع الجليلة أن يكون مختلفاً ومميزاً يليق بوداع من وهبها أجمل أيام حياته ..

حين وصل إليها وضع حقيبته جانباً ثم دار حول القبر، عانق بكفيه التراب والحجارة وكل شيء، عاتبها بمرارة على رحيلها المبكر وعلى تركه وحيداً طيلة ذلك الوقت دون أن تفكر بحاله وما وصل إليه في غيابها، لأنها لم تستدعه ولم تضمه إليها هو الذي توقع منها الوفاء وهي في قبرها وأن تلمه الدنيا معها ليكونا معاً رفيقين حتى في الرحيل، توقف عن دورانه وعانق شاهدة القبر بحرارة، مسحها كعادته

ولحظتها شعر بالدفء ينبعث منها ولا يدري إن كان ذلك حقيقياً أم الليل تعاطف معه ورق لحاله ولم يرسل ببرده إلى بلاطات قبرها؟..

بكى الجليلة بحرقة شديدة ذاك الليل وطلب منها أن تسامحه وتصفح عن زلاته الصغيرة، اعتذر إن كان قد تسبب بإزعاجها وهدهد اللحد طالباً من صاحبته أن تبقى راقدة بسلام، بعدها وضع رأسه على حقيبة السفر وطوى ركبتيه إلى صدره كطفل ينام في البرد قريباً من حضن أمه، كانت أجفانه مبللة بالندى حين غفا حيث حلم بأنه وحبيبته الجليلة قد وقعا في جب مؤامرة دبرها الجميع ورأى نفسه يسبح في مياه الجب محاولاً الصمود أطول مدة يستطيع عل وعسى أن يمر به بعض السيارة وينقذونه مما هو فيه، يأس من ذلك فحلم من جديد بشمس تشرق ونهار يطلع غير أن شمسه استعصت على الشروق ونهاره بقي سواداً تصفرُ فيه الريح التي غدت لئيمة كشفت وجهها الحقيقي مع تقدم الليل وامتداده ولأجل ذلك

شد معطفه أكثر على نفسه واستنجد بمن كانت شريكته كي تدفئه من برد ألم بروحه وعندها استفاق على جوع قرص معدته وكاد يشل حركته لولا أنه جلس ومد يده على عجل إلى الحقيبة، أخرج منها بيضات مسلوقة وأقراص بندورة وأرغفة خبز خبأها لحالة طوارئ كالتي يمر بها الآن، غص بلقيماته فأتبعها بشربة من ماء معد لتلك الغاية فسارت بصعوبة وكأنها تعبر ممراً وعراً معبداً بالحجارة والشوك ...

أمده شعور الشبع بأوكسجين الحياة إذ نهض بسرعة وجال بنظره المكان فبدا كأنه يتفقد كل القبور كما فعل أول مرة، بقي على ذلك لبرهة وجيزة ثم جلس على قبر مجاور لقبر الحبيبة ارتفعت حجارته عما حوله ليراقب الحي المجاور وما يليه من أحياء تخيلها رغم أضوائها امتداد لنفس المكان وكمن لسعه عقرب قفز برشاقة شاب من على تلك الحافة وملامح السرور بادية عليه وبصوت خافت راح وهو يقترب من قبر الجليلة يعتذر لأن الجوع قد أنساه أن يعزم عليها لتتناول معه العشاء ..

فجأة أطلق ضحكته كما لم يفعل من قبل وقال: ماذا يعني أن أتناول الطعام لوحدي؟ توقف كمن يتوقع بأن هناك من سيجيب عن سؤاله وحين بقي الصمت مختلطاً بهسيس الأعشاب وعويل الريح أردف: طوال عمرك يا الجليلة تتناولين الطعام في غيابي مع أهلك وأخوتك وصديقاتك وخالاتك وعماتك وأنا مثل الكلب ألهث وأركض من شغل لآخر لأوفر لك ولأولادك العيش الرغيد والهانئ ..

في تلك اللحظات بدا صالح صالحاً آخر غير ذلك الرجل الذي دخل المقبرة مع أول الليل نسي كل كلماته وانقلب عليها إذ راح يشير بأصابعه نحو القبر كأن صاحبته تقف أمامه، أرتفع صوته أكثر ليغدو صراخاً وهو يقول: موتي.. الحمد لله أنكِ مت لأنني لم أر معك يوماً أبيض طوال حياتي، لا ولم يقتصر الأمر على مشكلاتك ومشكلات أولادك وبناتك بل أغرقتني بخلافات أبيك وأمك وشقيقاتك وأزواجهن، لقد كنت مصدراً لتعاستي يا الجليلة ..

خفف من صراخه كأنه سيدخل في حوار طويل معها حين قال: كنت أتوقعك عصفورة حياتي يا الجليلة وإذ بك غراب ينذر بالشؤم والخراب. استدار إلى عدة اتجاهات مقلداً صوت الطائر المذكور ثم بعد ذلك دخل في تفاصيل كثيرة لم يترك خلالها عيباً ألا ووضعه في زوجته الراحلة وختم قائلاً كأنه يلقي خطاباً وجب عليه أن ينتهي منه في الحال: والآن يا حبيبتي سأبحث عن عصفورة جديدة لا تشبهك أبداً وسأبني معها عشاً جديداً فربما تعيد لي السعادة التي فقدتها في حضورك.. أقول ربما يا عمري.. أطلق ضحكة طويلة خفت تدريجياً إلى أن تلاشت ومنذ ذلك التاريخ لم يسمع أحد من سكان الأحياء المجاورة للمقبرة صوت صالح ولم يشهد أيٌّ منهم بأنه رآه يدخل باب المقبرة متوجهاً إلى قبر الجليلة ..

لا يكفي

كانت الحياة هانئة وادعة في بلدة أم الرياحين يضرب بها المثل في القرى والبلدات المجاورة حتى إن أغلب سكانها كانوا يتمنون لو تصبح حياتهم كحياة أبناء أم الرياحين، بعضهم كان يغار من أهلها وآخرون عضوا على أهلها النواجذ وأقسموا من شدة حسدهم لو استطاعوا لو صلوا إليها وخربوا بأيديهم على أهلها رغد العيش وتلك السعادة التي تسكن كل قلب، كان الجميع في أم الرياحين بعيشه مقتنعاً وراضياً يحصل على حقوقه ويؤدي واجباته ومختار البلدة رجلاً متفانياً في خدمة سكانها، يوزع مياه الشرب حسب الحاجة ومياه السقاية حسب الأرض وإن نشب خلاف يصل أحياناً حد السباب يسارع فوراً إلى حله، كان نشيطاً يبذل كل ما يستطيع لتوفير الراحة للجميع،

يستيقظ صباحاً ليتفقد المدرسة وسير العمل فيها، يسأل المدير عن كل كبيرة وصغيرة ويطالبه ببذل جهد مضاعف لتحسين مستوى من تدنى مستواهم في الصفوف وتشجيع المتفوقين منهم.. يعرج في طريقه على المستوصف ليطمئن على حالة المرضى فيه ويطلب من الطبيب أن يسجل له الاحتياجات والنواقص، بعدها لا بد سيمر على الحقول حيث الفلاحين ومواسم الخير والغلال وعندها تسيطر عليه نشوة فرح لا توصف خاصة وهو يصافحهم ويلامس أيديهم الخشنة أو عندما يتناول معهم رغيف خبز وقرص بندورة أو وهو يقطف حبة خيار يفركها بيديه أو يمسحها بثوبه، يقربها من أنفه ثم يشتم رائحتها الطازجة بتلذذ ويقضمها منتشياً كأنه بذلك يأكل أطيب طعام في العالم ..

كان المختار لا ينسى أن يتجول بين الأشجار، يستمتع بمنظرها ويرى أم الرياحين بوجودها كأنها قطعة صغيرة من الجنة، نشيطاً ولحوحاً كان المختار لا يخجل أن يسأل أهل

الخبرة عن الأشجار والثمار وعن كل أمر يستعصي عليه فهمه، يستشير الكبار من أهل البلدة في كل شيء ويأخذ بالرأي المناسب لتجاوز أي عقبة تعترض حياة الناس..
الفرن الذي تنضج فيه أرغفة أم الرياحين كان له نصيب وافر من جولة المختار التفقدية إذ يقف مزهواً يرقبها وهي تسير على خط جميل من بيت النار إلى نافذة البيع لتصل إلى كل بيت ومحتاج، كان يباهي باتساعها وينتابه شعور بأنه يحلق مع بلدته في فضاء رحب لا يطاله أحد، يفاخر بذلك كثيراً فقمح أم الرياحين من أجود الأقماح وخبزها شهي ليس له من شبيه ..

كانت الحياة في البلدة سلسلة هادئة كأنها تسير على وقع موسيقا عذبة، ناعمة طرية وشجيرات الياسمين من على أسيجة البيوت تنثر عطرها منذ الصباح وإلى ما لا نهاية والعصافير تزقزق فرحاً برزقها الوافر تجتاز الأمكنة من دون حذر أو خوف مطمئنة بألا أحد سيعكر عيشها الرغيد ..

ذات جولة صباحية معتادة للمختار فوجئ بأعداد من أهالي أم الرياحين قد تجمعوا في ساحة البلدة يتذمرون من عيشها الممل وحياتها الرتيبة، من نومها وصحوها المبكر ومن أشياء أخرى لم تكن في الحسبان ولم تخطر على بال المختار أبداً، اقترب منهم فتعالت أصواتهم أكثر وتحولت إلى صراخ، كان أغلب المتواجدين من كسالى المدرسة ومرضى المستوصف وممن فضلهم على نفسه مرات ومرات في السقاية والخبز وغيرها من خدمات، الذي آثار استغرابه حقاً بأن بينهم أناساً يحترمهم ويثق بهم إلى أقصى الدرجات فكيف وكلوا أمرهم إلى «جلبوط»؟ ذاك الكسول المشاكس الذي كان مصدراً لإزعاج البلدة ومشاكلها، تعجب كيف رضي العقلاء منهم بذاك الشخص ينوب عنهم حتى في الحديث لكن ما خطر له زال فيما بعد حين عرف بأنه وعدهم ببلدة أفضل وبأموال كثيرة سيحققها الاستثمار الذي يطمح إليه حيث سيكون لكل منهم نصيبه من ذلك ..

قال المختار: ما العيب فيَّ وما هي الأخطاء التي جعلتكم تفكرون باستبدالي؟.. فأجابه «جلبوط»: أنت كامل يا مختار لكنك كبرت ونحن نريد مختاراً شاباً من بيننا يفهم ما نريد ويقدر رغباتنا.. سكت «جلبوط» للحظات ليتيح للحاضرين التعبير عن آرائهم بالهتاف وحين انتهوا أردف بثقة أكبر:

المخترة ليست حكراً عليك هي حقٌ لغيرك كما كانت من حقك، نحن ندعوك إلى انتخابات تفصل بيننا وتقرر من هو المختار الجديد..

سر المختار وأثلج صدره من كلام الرجل فوافق من فوره على دعوته لانتخابات عاجلة، لمَ لا وهو لا طمع لديه في هذه المخترة سوى خدمة أهل البلدة وتوفير الراحة لهم وهو من ناحية أخرى واثق بأن العقلاء سيرجحون المنطق ويختارون من تولى أمرهم يوماً نزولاً عند رغبتهم أصلاً وهم سيعيدونه إلى ما كان عليه..

كان «جلبوط» قد حضر كل شيء من أجل الانتخابات في اليوم التالي وزيادة في صدقها طالب بحضور «سحيمان» من بلدة مجاورة ليكون مشرفاً على هذه العملية التي تشهدها أم الرياحين لأول مرة في تاريخها و«سحيمان» رجل سيط عنه كثيراً بأنه أبٌ للنزاهة والشرف، يقدر الحرية حق قدرها ويؤمن بتداول السلطة ويعشق الديمقراطية وحين حضر إلى البلدة استقبله «جلبوط» وقدم له كيساً مليئاً بالذهب تقديراً لحضوره الكريم فنهره صاحب السمعة الذهبية وقال بصوته الأجش: هذا لا يكفي. انحنى «جلبوط» بتواضع زائف وأجاب: أعرف بأنه لا يكفي ..

أجريت الانتخابات في البلدة حسب الأصول فكانت نتائجها صدمة أخرى للمختار إذ فوجئ بأصوات مؤيديه تتساوى مع أصوات معارضيه، لم ييأس وبقي على أمل أن يتحقق مراده في الجولة الثانية حسب قانون الانتخابات فترجح الكفة لصالحه لكن شيئاً من هذا لم يحدث وبقي الحال على

التعادل بين المختار ومنافسه «جلبوط» وانتخابات عجيبة كانت لم يتذكر أحد مؤيدي «جلبوط» جمائل المختار ليتراجع عن قراره ويحسم ذاك التنافس .

نظر «جلبوط» بعينين متوسلتين إلى «سحيمان» الجالس وكأنه غير مكترث بما يحدث حيث لم يعطِ لتلك النظرات أي اعتبار، عندها تقدم منه ووضع أمامه شيكاً وقع فيه على مبلغ كبير من المال، اعترض «سحيمان» على ذلك بنظرات تقادح منها الشرر خفت وتلاشت مع ابتسامة «جلبوط» الباهتة وهو يردد شبه معتذر وبهمس: أعرف بأنه لا يكفي .

دق «سحيمان» على الطاولة ثلاثاً ثم قال مخاطباً الجمع: كما نص القانون في بلدتكم فإن صوتي سيكون مرجحاً وأنا أمنحه الآن لك يا «جلبوط» إيماناً بقدرة الشباب على صنع المستحيل و.. ولم يكمل «سحيمان» كلامه إذ علا التصفير والتصفيق ترافق بهتافات كثيرة تؤيد النصر المحقق وأخرى تعارضه وفوضى أسفرت عن لا شيء، ساد بعدها صمت وفراغ رهيب

استغله «سحيمان» ليأخذ من «جلبوط» ختم المختزة ومفاتيح مياه الشرب والسقاية ثم أوصاه أن يكون حارساً شديد الحذر خاصة في الليل، حاول «جلبوط» أن يعترض غير أن «سحيمان» رفع سبابته في وجهه وقال محذراً: تذكر بأن هذا لا يكفي .

قيل بأن وقتاً طويلاً لم يمض على تسلم «جلبوط» للمختزة حتى سرقت مياه البئر وقيل أيضاً بأنها تلوثت ومات بسببها خلقٌ كثيرون وقيل بأن قمحاً كثيراً نقل ليلاً إلى خارج البلدة وبأن أرغفة الخبز ضاقت وصغرت حتى تلاشت وعلى ذمة الراوي بأن الحياة تبدلت وانقلبت رأساً على عقب بعد أن جفت الخضرة ويبست الأشجار وغدت البلدة بلون أصفر كأنها قطعة من الصحراء وقيل عن قيل بأن أهالي أم الرياحين أو من تبقى منهم قد تحسروا عليها ورددوا بلوعة بأن هذا لا يكفي.

بحث

آه يا امرأة للفقد الموجع والحرمان الواقف بالمرصاد لكل الأشياء... أينك؟ يا كل السعادات الهاربة والمتسربة عنوة كالماء من بين الأصابع، يا العمر المجدول من الأنات، ها أنا أتزنر بالحزن المخبوء داخلي لأجلك، أتلفع اليأس الساكن في أعماقي وأعتمر الحلم لأفيض على هذه الأرض باحثاً عنك موجة ترمي الزبد عند الشاطئ وترتد إلى الأعماق فليتك تعودين والعود أحمد أو ليت العنيد الخافق داخلي يقنع بالنسيان أو ليته يتذكر بأن الشيب وهو يلوح لدبيب الوقت لا يوصل أبداً إليك.. أحتار ويحيرني معه يا الغالية وهو لا يتبتل باسم غير اسمك فدليني وقد كنت مهتدىً للروح ومن بعدك أضاعت بوصلة الجهات.. قولي الآن، ليس من عادتي تهديد أحد ولكنني أخاف أن تختلط عليَّ الأمور فأحسبك في خيالي الواهن ولو للحظات وهماً ليس إلا ..

ساحرةٌ جميلةٌ أنت وأنا المسحور بنورك، من أين تطلعين وكيف تطلين عليَّ لا أَدري؟.. يا المبثوثة في كل مسامي والمعلقة دوماً فوق جدار الروح فماذا أفعل للكسر وقد تجذر في العظم وكيف أعيد الحياة للطرقات وهي مقفرة خاوية والبيت من بعدك أطلالاً للعث والعناكب ؟..

سرت في الشارع الذي كان يوصلني دوماً إليك، كان طويلاً هذه المرة ولم يكن فيه صراخ صبية يعبثون ويلعبون، بعضهم يركضون خلف كرة هاربة كنت أطاردها معهم يوماً لأعرض قدامك نفسي وأريك بطولاتي بهدف أحققه لو خلسة على الخصوم وإن لم أفعل أنال ضربة جزاء من عينيك المطلتين من الشرفة، تذكرين بأنهما كانتا همي وبغيتي وبعد ذلك يجب عليَّ أن أقنع ذاك العاذل في شارعكم بأنني لاعب كرة ماهر يعرف كيف ومتى يسدد أهدافه بحرفية ..

حين وصلت كان سكون مرعب قد حط هناك منعني أن أنادي على الرفاق وأستنفر تلك العصبة المحببة على قلبي، لم أنده وكتمت الصوت إذ خفت رصاصاً طائشاً أو مقصوداً يمزق تلك الذكرى ويصادر من قلبي الأحلام.. آه يا الباسقة

داخلي مثل أشجار البطم والزعرور والبلوط والسنديان في ربوع بلادنا ليتك تعلمين بأني حاولت جمع شتات غيابك، ركبت الموج ورافقت النهر لألم الباقي منك، أقلب الصورة وأحاول أن أفعل مثل «إيزيس» التي جمعت أجزاء زوجها المتناثرة من كل الجهات لعلي أكتب اسمي في التاريخ لكن رجائي خاب حين وجدت بأني أجدف عكس التيار لأجدني عجوزاً خرفاً يرقبُ عند المفارق ظلالاً لأنثى فرقني الدرب عنها، ألوح لها ولذكراها بالقلب حيناً وبالروح في كل وقت لعل الطريق الذي قد طواكِ يعيد ديوناً عليه سداداً لما قد أخذ..

لصفنا رجعت، لمقعدنا الأوسط، لم أفعل ذلك عن طيب خاطر، أجبرني الخافق غاليتي، أقنعني بحجج كثيرة أهمها بأنني سأجدك أو ربما رائحة عطرك المبثوثة في كل أرجاء المكان وقد أعثرُ على صبية كنتها تمتلىء حيوية وشقاوة، أذكر بأنني كنت أتنافس معها في التحصيل، أسبقها مرات وكثيراً ما جعلتني ألتصق بالمقعد لأرقب في القلب جديلتين لا أحلى ولا أجمل خاصة وهما يطيران ويحطان على الكتفين حيث كنت أحسب ذكاءك يشع منهما ولذا بكيت عليه أشد بكاء ما ظننته كافياً يفي

بالوصول إليك .. فجأة يا الحبيبة وجدتني مفجوعاً أرثي الحال التي وصلنا إليهاَ، ويا الغالية لم تكوني هناك، لا أنت ولا المقعد ولا مدرسة للعلمِ عندها عرفتُ بأن الوقت تأخرَ ودوى في روحي تفجير أجلسني أذرو كوم رماد ..

أبحثُ عنك من دون تعب أو كلل لأكتب عينيك الواسعتين على شمس بلادناَ التي لا تغيب كي أسجل اسمك فوق الغيم وعلى كل سهل وتلة وجبل ووادي.. أنقشه مثل مراهق على كل شجرة أصادفها وأحلم بعدها بأننا معاً وبأنني أتذوق قبلتك لأول مرة.. آه يا الدفء الضائع ها أنا أقف لأجلك عند كل مفرق وعلى كل درب أرقب الأجساد والوجوه لعلي أجد وجهاً يشبه وجهك أجد فيه امرأة تطلع أمامي مثل ياسمينة أو سنبلة قمح تتسع لقلبي العابث وروحي الجريحة فأجد ذلك مستحيلاً وحلماً لا وصول إليه بغير الحلم ولحظتها أسلم للجرح حياتي وأفكر كيف أعيدك صرحاً شامخاً وطناً من كل الألوان، أتمنى ذلك يا روحي وأقول يا ليت بأن البشر تعاد.

هذيان مع البغل

قلت: «دي» وبقي ساكناً لا يتحرك، اتكأت بيدي على «الكابوسة» التي ترتفع للأعلى وتتصل بشكل مائل نحو الأسفل بالمحراث القديم المركب عليه ..

كان مستنفراً يذبُ بذيله بعضَ ذبابات حاولن التجمع على مؤخرته لكن ذيله الذي يشبه المقشة كان لهن بالمرصاد ..

أشحتُ ببصري عنه ورحت أتأمل قطعة الأرض التي استأجرتها من صاحبها، قبل أيام فلحتها على الجرار مرات عدة حتى غدت نظيفة مثل راحة اليد واليوم جئت لأقطعها إلى أثلام متساوية الطول يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة تقدر بالمتر أو يزيد قليلاً من أجل زراعتها، لكن هذا البغل اللعين يريد أن يضيع عليّ يومي، منذ الصباح وأنا أدور خلفه ضاغطاً

بكل قوتي لينغرز المحراث في الأرض ويسبب له تعباً أكبر لكنه لم يتعب وأتعبني ..

قلت: «دي» عشرات المرات، مئات المرات وبقي يدور داخل تلك الأرض، يلف يميناً ويساراً من دون أن يمكنني من إنجاز شيء يذكر.

مدير دائرتنا وعندما تقدمت له بطلب إجازة قبل أيام قال مستغرباً:

«الرزق بين يديك وتبحث عنه في مكان أخر ومع هذا سأعطيك إجازة إدارية، يعني براتب».. شرد قليلاً ثم أضاف:

«بعد هذه الإجازة لي معك جلسة خاصة سأعلمك كيف تدبر أمورك، يبدو بأن التلميح لا ينفع معك».

«دي» .. لا أريد أن أتعلم ولن أبدأ معه من الصفر كما قال:

«دي» لكنه لم يحرك سوى جلد ظهره المكسو بشعر قصير ناعم حيث تموج عدة موجات صغيرة، ما لبثت أن هدأت واستقرت، قدّرتُ أن إحدى الذبابات الفارة من ذيله قد صبت جام غضبها على ظهره ولسعته هناك، ألا ليت كل ذباب العالم

يجتمع عليك ويمتص دمائك أيها البغل الحرون لتغدو جلداً على عظم، ساعتها سأجعلك تجر هذا المحراث كما أريد ورجلك فوق رقبتك ولكن أنى لي بتلك الأمنية وعمي لم يعد له منذ تقدم في السن وحل عليه المرض من عمل سواك.. آه.. آه، سامحك الله يا عمي، ألم يحذرك الجيران من إطعامه التبن والعلف ونصحوك باعتماد الشوك كأحسن غذاء يقدم لهذا النوع من الدواب؟ لكنك لم تسمع متناسياً أن البغال كلما شبعت قَلَّتَ طاعتها وتمادت على أصحابها؟ وزدت على ذلك بما تجمعه يداك المرتجفتان من حشائش وأعشاب تنبت بين الأشجار ليقضمها هذا اللعين بأسنانه..

هيا.. لا تجعلني أشتم أحداً، قبل قليل كاد لساني يزل ويشتم عمي لكنني تماسكت وكظمت غيظي، هل تعرف لماذا؟.. من أين لك أن تعرف؟.. أنت بغل لا تفهم ولا مخ فيك، على رغم ذلك سأقول لك لأنني «زلمه» مؤدب فكن مؤدباً مثلي وسر إلى حيث أريد، هيا ردَّ جميل عمي على الأقل.. «دي» يا ابن الحمار، مال برقبته والتف برأسه نحوي كأنه

يتفحصني أو يريد التعرف عليّ كمن يراني لأول مره أو ربما أراد التأكد من صدق نواياي بعد أن سمع تصاعد صوتي في «الدي» الأخيرة وأنا أرفع العصا لأهوي بها على مؤخرته..

عمي وعندما ذهبت إلى منزله لاستعارة هذا البغل نصحني أن انتظر الجمعة فهذا البغل لا يعمل إلا خوفاً مع أبنائه ..

قلت: الجمعة بعيدة وإجازتي تنتهي الجمعة، أعطني البغل وسأتدبر أمري...

قال: «خذه» حتى لا أظن أنه يبخل به عليّ.. سأفعل ما فعله بك أبناء عمي عندما ربطوك وضربوك حتى سال دمك، يبدو أنك لا تفهم إلا بالعصا ..

العصا نزلت من يدي وضربت الأرض بدلاً من ضربه الذي تراجعت عنه لأعطيه فرصة أخرى ولأعطي نفسي محاولة جديدة، لكنني في حقيقة الأمر خشيت أن يحدث ما لا تحمد عقباه..

لم يتحرك، بقي لاوياً عنقه ينظر نحوي كأنه يحتقرني ويستهزئ بي ..

لا تظن أنني ضعيف برغم جسدي الذي تراه، أنا قادر أن أفعل بك ما فعله غيري لكنني إنسان رقيق المشاعر وصبور

ولا أريد جرح مشاعرك.. قال مشاعر.. قال.. هه.. أنت لا مشاعر لديك، أنت هجين بين الحمار و«الكديشة».. اسمع جيداً أنا عنيد مثلك، زوجتي تؤكد لي ذلك دائماً.. البارحة ذكرتها بميزات عنادي وصبري عليها الذي أثمر.. لقد حبلت بولد ذكر.. هل تفهم ما معنى ولد ذكر؟.. أجل، أجل، الطبيب أكد لها ذلك.. وعندما شككت بكلامه مد يده نحو الجهاز مشيراً إليه.. ها أنا أسر إليك ولم أخبر بهذا أحد قبلك حتى أمي أخفيت عنها هذا الأمر حتى لا تقول لي كعادتها: «أنت من أصحاب العيون البيض وأصحابها لا ينجبون الذكور إلا إذا غيروا فلاحتهم» سأثبت لها ولجميع الناس أنني قادر على إنجاب الأولاد الذكور ومن زوجتي فقط ..

«دي» ولم أفق إلا في المستشفى وحولي أمي وزوجتي وعدد من الأقارب، اللعين لم تكد عصاي تلامسه حتى أصابني وكاد يقضي علي...

القصة الفائزة بالمركز الثالث لجائزة
بصرى الشام للعام ٢٠١٠م

واحد .. صفر

أقولُ لنفسي هامسةً سأدعه يحاصرُ هذه البقعةَ كما يحلو له فهي واسعةٌ وليطارد فوقها بأحصنته كما يشاء، لا ضيرَ في ذلك ولا مانع أن أشعرَ بتلك النشوةِ اللذيذة التي تنسربُ إلى كل مسامي، تدوخني وتكاد تعصف بي..

أشعرُ ببعض الراحة للحظاتٍ لأنَّ ملكي مستقرٌ يرقدُ مرتاحاً في الزاوية الأخرى تحيطُ به القلاعُ من الجانبين وتصدُّ عنه الهجمات، سريعاً يغادرني ارتياحي فأتنهد حسرةً، أين هو الأمان هذه الأيام؟.. يطلعُ السؤال فجأة من داخلي.. يجبُ ألا أركنَ كثيراً لتلك الفكرةِ فالدنيا مقلوبةٌ رأساً على عقب حيث تماثيلٌ تتحطمُ وعروشٌ تتهاوى وتيجان تسقطُ، مالي

ولهذا فالسياسة ليست من شأني، أظنُّ بأنه من الأفضل للمرأة ألا تكترثَ كثيراً لذلك الأمر الذي يتقاتل من أجله الرجال، الآن يجب عليّ الاهتمامَ بالجزء الآخر من الرقعة لأنّه الأهم وهذه الزاوية الصغيرة بالذات يجب أن أذودَ عنها بكل ما أملك من قوة، عليَّ أن أحصنها وأوليها كل اهتمامي فسقوطها يعني خروجي من تلك اللعبةِ التي فرضَت عليّ وارتضيتها لأتحدى بها هذا الجالس أمامي، قد أخاف وأصاب بالرجفان لو قلت لنفسي ولو سراً بأن في هذه الزاوية ضياعي وربما موتي، كثيرون هم الذين يسعون للوصول إليها.. أعرف ذلك جيداً وإن قلتُ غيرَه أكونُ بعيدةً عن الأنثى وإحساسها الذي تعتمد في كثير من الحالات المشابهة لتلك الحالة، لا أدري لماذا أفلسفُ الأمورَ وكأني أريدُ لها أن تسيرَ إلى غير ما هي عليه؟.. لا مبرّرَ لخوفي فالرجلُ يلعبُ بعيداً عن حصني المنيع، ما زال يحشدُ قطعه إلى أماكنَ أخرى وأنا قادرة على ردّها متى اعتمدت، أنا أيضاً لستُ

بالخصم السهل ولا بالشريك المغفل كما يعتقدُ ويخيلُ إليه، لن يقطع أيَّ مربع نحوي من دون أن أكبده خسائرَ يندمُ عليها كثيراً ومن يدري قد أتحولُ بعدها من الدفاع إلى هجوم شرس، ينتابني إحساسٌ يملؤني ويكاد يطوف بحوافي بأن هذا سيحدث، نعم سيكون ذلك وفيله الواقف قريباً من زاويتي الغالية منذ برهة لن يخيفني، سأدفع بالجندي خطوة واحدة نحوه كي يقص بشفرته خرطومه، يستحق ذلك وصاحبه يستحق أيضاً، هو من رماه هنا ويبدو لي بأنه غيرُ مكترثٍ بأمره إذ تركه دون ظهر وحماية وكذلك شأن حصانه الذي تمركز على مقربة منه لاهياً كأنّما نسيَ ما نحن فيه وأعتقد بأنه بعد قليل سيترك هذه المعركة وينسل إلى المروج المجاورة يقضمُ منها العشبَ بهدوء، ذلك الحصان قد لا يختلف كثيراً عن صاحبه أو من يحركه ويلعب به، لدي شعور بأن ذلك الرجل مستهتر بكل شيء ويبدو وكأنه يريد أن يرمي لي بقطعه مجاناً من دون حساب..

تنحنح الرجلُ فأحسستُ بأنه اكتشفَ ما يدور في رأسي، تريثت قليلاً قبل أن أنفذ ما اعتمدت عليه، اختلست عدة نظرات نحوه.. زجاج سميك يفصل بيني وبين عينيه، وجهه يبدو حيادياً لا يشي بشيء لكن تواقيع الزمن فوقه حفرت مسارات عدة تنم عن خبرته وطول التجربة ولعل أكثر ما لفت انتباهي يداه العابثتان إذ يبدو وهو يحركهما وكأنه يريدُ أن يمسكَ بكل شيءٍ دفعةً واحدة.. اعتقدتُ بدايةً بأنه يفعل ذلك لمجرد التمويه على أشياء أخرى، من يدري؟ ربما.. ولعله يخفي حقيقة ما ينوي القيام به.. هو وقت الفعل، لا مجالَ لغيره أبداً وها قد حانت اللحظة لجعل ترددي شيء من الماضي.. هكذا أقول لنفسي وأنا أمدُ يدي دافعة بيدقي نحو فيله.. الآن ليس أمامه سوى أمرين، الفرارُ أو سأجعلُ فيله يكبو فوق مربعه ذاك، سيلوي بيدقي رقبته ويدوس فوقها.. هيا أرني ماذا ستفعل أيها المختبئ خلف

زجاج نظارتيك، ستعرف في هذه اللحظة كم هي قاسية ضربة المرأة وخاصة إذا ما اعتراها الهلع وسيطر على كيانها، أرني كيف ستدبر نفسك الآن وتخرج من خانة «اليّك» التي وضعتك فيها؟.. لم يكترث لتلك الأسئلة التي طرحتها بيني وبيني، خلع زجاج عينيه، فركهما ثم أعاد نظارتيه إلى مكانهما دون أن ينبس بحرف، هيّء ليَّ بأن بشائرَ هزيمته قد لاحتْ لتمزقَ أمجاداً كان سيفاخر بها لو أتيح له أن يحقق مراده، لكنني فتحتُ فمي استغراباً وأنا أرقبهُ، صدمتني ملامحَ الراحة والهدوء التي ما زالت بادية عليه، لم يظهر أيُّ انزعاجٍ واكتفى بصرف نظرهِ عن مواقع عديدة ركز عليها سابقاً مبتعداً عن الملك، حدّقْ ملياً بحصانه الواقف على مقربة من الفيل وراح يقيسُ المسافة بينه وبين بيدقي المندفع نحو فيله، شيء أشد من الخوف وأقسى من الرعب سيطر على أعصابي، كيف فاتني ولم أتنبه لأهمية حصانه الذي بقي لابد طيلة هذه

الفترة في موقعه ذاك، هو حدثني مرة عن خطورة قفزات الحصان وقدرته الهائلة على المناورة وأنا نفسي قرأتُ وسمعتُ عن أحصنةٍ خطيرةٍ تحطم حتى الأسوار المنيعة عند الغضب.. أذكر مرة عندما كنت وأفراد أسرتي نتنزه في البستان حيث انفلتَ حصانٌ من عقاله هائجاً وكاد يدوسنا جميعاً لولا صاحبُه الذي أنقذنا واستطاع أن يسيطرَ عليه ويعيدَ له حاجبتيه.. سريعاً ترتدُّ إليَّ الذكرى فذاك لم يكن حصاناً بل بغلاً، أفاجأُ بذلك وتخيبُ آمالي إذ تبدو معلوماتي المشوشة مثل ذاكرتي، ألومُ نفسي على ظن السوء فالأحصنة وادعة ولا تدك الأسوار والحصون، الفيلة هي من كانت في القديم تدوس الناس وتهزم الجيوش وفي عصرنا الحاضر تتكفل الأسلحةُ الذكيةُ بكل شيء.. على كل حال أنا أكاد أكون متأكدة بأن الأحصنة استخدمها الفرسان لأغراض وغايات نبيلة وقلائل من ركبوا ظهورها لغير ذلك وما أتمناه

الآن وأنـا في وضـع لا يـسمح لي بغـير التمنـي أن يكـون هـذا
الرجل فارساً نبيلاً حتى أرفع الـدرجات لكنـه سريعـاً يقطـعُ
دورانَ التداعيات في رأسي ومثل نابض ينـتفض عـلى عجـل،
يمسك حـصانه ويـضعه مكـان بيـدقي الـذي جندلـه صريعـاً
ثم يهبُ واقفاً وهو يـردد: «كـش.. مـات الملـك» منتـشياً بـألم
لم أجربْـه قـبلاً فأبـدو أرضـاً يفلحهـا المحـراث لأول مـرة،
أشـدُ عـلى ملكـي الـضائع بحـسرة وأغمـضُ عينـيَّ عـلى
دمعة تتبددُ معها صرْختـي عـلى نتيجـة مفادُهـا واحـد صـفر،
أحـاول لملمـةَ جرحـي فأتلاشـى بهزيمتـي لأصـبحَ لا شيءَ
ولا حتى صفر ..

تعب

هذه ليست حياة «العمى» الموت صار أفضل منها بكثير.

هكذا ضبطت نفسي أردد وأنا أسير شارداً لوحدي على الطريق، تنبهت لذلك وحمدت الله بأن ما من أحد سمعني حتى لا يظن أن مساً من الجنون قد أصابني وإذا أردت أن أكون صريحاً أكثر كنت أريد أن أثبت لنفسي ذلك قبل الآخرين ومثل وشوشة سمعت صوتاً يقول لي «أهدأ» فقاطعته من فوري وأنا أحرك غاضباً بيدي الطليقة: روح يا، هذا ما كان يجب فعله منذ زمن. هكذا زجرت الآخر في داخلي حتى لا يثنيني عن قراري الصعب الذي اتخذته.. كدت أفقد صوابي وأجن أو لعل هذا ما حدث بالفعل فلمن أشكو همي لا أدري؟ قلت لحبيبتي سابقاً وشريكة حياتي

حتى اللحظة: أنا متعب. قالت: عليك بالراحة. ومضت إلى شؤونها، أنى لي بالراحة وأقاربها يحتلون المضافة طيلة النهار؟ كيف لي بذلك ونساؤهم يجلسن في غرفتي؟ وإذا فكرت أن أبدل ملابسي عليّ أن أستأذن عدة مرات قبل الدخول لأخذها وأذهب إلى غرفة الأولاد الذين يتضايقون لأنني أخرجتهم لدقائق من أجل هذا الشأن..

أقارب زوجتي جاؤوا لاجئين إلى البلدة وسكنوا في أحد بيوتها قريباً منا، يمضون النهار في بيتي يأكلون ويشربون ويتسلون وإذا تعبوا أو ملوا يعودون ليخلدوا للراحة، أفرح أحياناً بمغادرتهم لا ليس أحياناً، دائما أسرُ بذلك وأركض سريعاً إلى غرفتي كي أفعل مثلهم وقبل أن أتخذ وضعية النوم يكون غيرهم قد حلوا بدلاً منهم ومنعوني مما أريد.. لو علمت زوجتي ما يدور في خلدي الآن لالتقطت هذه الفكرة وقالت: أقاربي ليسوا فقط هم الضيوف، أقاربك وأصدقاؤك يأتون إليك ويحلون ضيوفاً علينا أيضاً. حتماً كنت سأصدق كلامها وربما أردد

بامتعاض أحاول ألا يظهر على وجهي: أنا لا أكره الضيوف يا حبيبتي ولكنني أكره قلبي الطيب والبارد الذي يستطيع تحملهم. تداعبني أفكار كثيرة أحاول إيقافها وأنهمك في مشي سريع يشبه كلمات زوجتي التي كثيراً ما رددت على مسامعي كلمة الحرية وتحدثت طويلاً عنها..

- طيب يا بنت الحلال أليست أقل درجات الحرية أن أكون مرتاحاً في منزلي، أنام متى طاب النوم، أكل وأشرب وأتحرك وأعمل وأتنفس من دون أن يعكر عليّ أحد ذلك؟.. تهز رأسها والشرر يتطاير من عينيها فأكمل بلهجة أخف وطأة من ذي قبل محاولاً التأثير عليها وجعلها ترأف بحالي وتحن عليَّ: انظري لوضعي في النوم فقط، ابن شقيقتك ينام في المضافة لأنه يكره النوم عند أهله، وابنك البكر ينام في غرفتي الخاصة لأنه يختلف في الرأي مع ابن شقيقتك ولا يطيق النوم مع إخوته الصغار لأنهم يبولون على أنفسهم وتنبعث منهم روائح كريهة وأنتِ تتركينني لتنامي مع بناتك في الغرفة الأخرى ولا يبق لي سوى هذا الممر الذي يعبر

الجميع منه إلى الحمام فلا يدعونني أهدأ ولا أستقر، من حقي أن أراك لو مرة في الشهر، أحتاج أن أقرأ ساعة في اليوم وأن أجلس وحيداً مع نفسي ولو دقائق، أنا متعب يا امرأة ولا وقت لدي لأربي أولادي وأعلمهم والقليل من الراحة أقضيه في فض خلافاتهم.. تقول: اصبر.. الحرية ثمنها باهض. ثم تتلاحق كلماتها مثل سيل متدفق تشرح من خلالها فوائد الصبر وعظمته وأنا أكاد أنفجر من الغيظ أردد دون أن تغادر الكلمات فمي: ما بعده إلا القبر. ثم أزفر ناراً شاتماً في داخلي الصبر والحرية معاً، خلال الشهور الماضية كنت مثل حكيم يستسلم لواقعه إذ اقتنعت وأقنعت نفسي بأن المرأة والبيت تتحولان أحياناً إلى سجن محكم القضبان نجبر على العيش داخله بحجة الحب لكنه ضاق ليصبح أصغر من الزنزانة بكثير، رياضة المشي التي أحبها عند الغروب أصبحت حسرة من الماضي الذي أشتاق إليه فما أن أبتعد عن سجني خطوات قليلة حتى يعترضني عبود شقيق زوجتي وكأنه كان لخطواتي بالمرصاد ليعيدني إلى الجلوس في المنزل

حيث يتبعه بعد لحظات ابن عمي فالح وآخرون لتكتمل الحلقة وليبدؤوا حديثاً مكرراً لا ينتهي عن الحرية والمعارضة والنظام وكأن حياتنا حكراً على ذلك الأمر، عبود يحب أن يقضي المساء عندي فيتبعه فالح وجماعته والذي وكما قال يفضل النهار عندي، سررت حين رأيت تقارباً بين عبود وفالح لكن تقاربهما ينقلب بسرعة فيصبحا ديكين يتصارعان على دجاجات لا تجد كل واحدة منها بداً من الوقوف مع أحدهما، يمضيان وقتاً طويلاً في ذلك ثم ينصرفان ومن معهما من الأتباع تاركينني أضرب رأسي في الحائط.. أنا متعب وأعصابي تالفة، كررت على زوجتي كثيراً ذلك الكلام فتقول:

أنت بخيل وأناني، هذه المرحلة خطيرة وعليك أن تدفع وتدفع، ما زلنا في البداية، غيرنا دفع الكثير. أضغط على أعصابي وأقول: يكفيني ما دفعت، أنا لا أحب ذلك، أنت نفسك قلت بأنني بخيل قبل قليل. تجلس قبالتي وتشرح لي عن المرحلة وظروفها وما تتطلبه منا.. أفجع بزوجتي وهي غير متعلمة

تتحدث بلغة مذيعي القنوات الفضائية التي لا تتوقف عن بث أخبارها وتحليلاتها ليل نهار فأحمد الله مجدداً لأن الكهرباء قطعت عنا منذ شهور حتى لا يجبرني الضيوف الذين أقاموا لفترة طويلة شركاء في المنزل على مشاهدة قنوات بعينها..

أضرب يدي الطليقة على جانبي بغضب وأقول رافعاً صوتي: يا أخي والله شيء يخرج العقل من الرأس. فكرت ذات مرة أن أستغل الصباح الباكر ومثل لص أخرجت الطاولة والكرسي بدون ضجيج لأجلس بين شجيرات الحديقة وعندما عدت ثانية لأجلب الأوراق والكتب والدفاتر وجدت ابن عمي فالح يجلس على الكرسي بانتظار قدومي، ألقى عليَّ تحية الصباح فرددتها وأطلقت ابتسامة تشبه الموت على ليل ينتهي بعبود وصباح يبدأ بفالح الذي لم يترك لي مجالاً للشرود إذ قال آمراً: هيا ابن العم هيا.. ادخل وهات بقية الكراسي. لحظتها عرفت بأن نقاشاً سيحدث بحضور الأتباع بين فالح وعبود وعندها ندمت لأنني ضيعت على نفسي بضع دقائق من الراحة المتاحة لي،

كلاهما أكد في أثناء شرب الشاي ما قاله عندما تركاني البارحة بأنه يحب البلد ويعمل لمصلحتها ويدافع عنها وعندما حاولت التدخل لأقول بأنني جزء من البلد قالاً بصوت واحد: اسكت، أنت لا تفهم في السياسة. فسكت ورحت أتابعُ حركة عبود وهو يمسح بيده على بندقيته وكأنه بذلك يداعب شعر حبيبته فأدركت لماذا أصبحت زوجتي تضع أصبعها في وجهي وتردد جملتها التي اعتدتها مع الوقت: حبيبي ورائي رجال يأكلون رأس الأفعى. وعند تلك الجملة كان النقاش ينتهي إذ أصمت واضعاً يدي على رأسي خوفاً عليه..

عبود كان أحياناً وأثناء النقاش يرفع البندقية عن حضنه ويعيدها إليه، لاحظت بأن فالح يرقبه ولا أدري لماذا انتابني إحساس بأنهما شريكان في ذاك السلاح.. مالي ولهذا الآن؟ روحي ثقيلة مثل جسدي المنهك، سمعت عن رجل كان يعمل بالأجرة وحين جاء يوم العطلة قال لزوجته بأن لا نقود لديه ويريد أن ينام مرتاحاً ذلك اليوم لكنها لم تنفذ ما أراد وأيقظته

باكراً ليجلب لها اللبن فنهض دون اعتراض حيث خرج منذ ذلك التاريخ ولم يعد وقيل أن أبنائه عثروا عليه بعد خمسة عشر عاماً يسكن في مكان بعيد وناء معتزلاً الناس، سأكون ذلك الرجل وسأفعل مثلما فعل، سأقطع الشوارع والطرقات وأمضي على عجل مغادراً إلى أي مكان حتى لو كان الجحيم عينه تاركاً هذه البلدة التي يدافع الجميع عن حريتي فيها دون أن يتركوا لي ولو طاقة صغيرة أتنفس منها، كنت أردد تلك الكلمات وأهلوس بها حين رأيتهما يلوحان لي من بعيد، كان كلاهما يحمل سلاحاً عندها غيرت اتجاهي بسرعة وركضت فركضا خلفي، رميت حقيبة سفري وزدت من سرعتي عندما سمعت دوي طلق ناري في الهواء وأثنائها كنت أتحسر على حياتي التي ضاعت بين عبود وفالح...

ابن الكلبة

تذكر بأنك فوق هذه السهول الحدودية المحاذية للجولان كدت دون أن تدري ترتكب جريمة قتل كانت ستغير حياتك الطفولية وتودي بك إلى الحبس، ذاك كان آخر شيء فعلناه معاً وآخر مرة ترى وجهه بعد أن ترك غيابه ندبة في قلبك الصغير زالت مع الوقت خاصة بعد أن عرفت إلى أين آلت حاله... يومها لم تكن تعرف بأن رفيقك عبدو أو عبدو المهاجر كما ناداه بعضهم يملك كل ذلك الحقد ومستعد لارتكاب فعل القتل.. سابقاً تعلقت به تعلق الطفل بأمه فهو رغم قصر قامته وصغر يديه يدهشك بقوته ومرونته ويثير إعجابك وأنتما تتباريان في رمي الحجارة إلى البعيد، تغار منه لأن حجرك في الهواء لن يقطع نصف المسافة التي يقطعها حجره وعندما تتسلقان شجرة

الكينا أمام الدار تنظر بحيرة عاجز إلى المسافة التي تفصل بينك وبينه إذ يصل كطائر إلى أبعد وأعلى أغصانها وأنت في منتصفها لا تستطيع من شدة الخوف أن ترتفع للأعلى ولو خطوة واحدة ذلك لأنك آمنت بالوسط والوسطية وأقنعت نفسك بذلك دون أن تدري يا مسكين بأن رياح التغيير قد تنسفك من أقصى اليمين حتى أقصى الشمال، تجعل رأسك مكان قدميك أو ربما تذروك أجزاءً مبعثرة تفتش عنها فلا تعثر لها على أثر، عبدو أذهلك في كل تصرفاته وعندما وجدتما صاعقاً متفجراً لإحدى القنابل حمله كخبير مدرب ووضعه على صخرة كبيرة ثم بدأنا من بعيد نصوب حجارتنا نحوه وحين انفجر لم تطالنا شظاياه ولولا فعلته لحدث معك أو معه ما حدث للكثيرين وسيكون شأننا في ذلك شأن أهلها الذين يقفون على حدود الخطر ويعيشون شظف العيش، يتأملون السراب والذين من فوقهم أو من وصلوا إلى ذلك يرقبونهم بعيون جامدة بلهاء، بعض أولئك خرجوا من بلدتنا ومن قرى حولها لكنهم بعد تسلمهم للمناصب الرفيعة نسوا

أمرها ولم يلتفتوا نحوها، لم يتذكروا بأنها أطعمتهم «عكوبها وفطرها وشومرها» وغيرها مما تنبت الأرض..

هنا في هذا السهل وقريباً من مقبرة البلدة الجديدة انقض صديقي عبدو على أحدهم.. ركض نحوه بشكل مفاجئ وأنا من خلفه، لم يكن الولد الآخر من البلدة ولم أشاهده قبلاً، حاول أن يهرب لكن خطوات عبدو كانت الأسرع لا تكاد ترى وحينما وصلت وجدته قد تفوق على رفيقك وراح يضربه بحبل غليظ كان يحمله وهو يبحث عن دابته التي ضلت فوق هذه السهول.. نظرت إلى الآخر متفحصاً كان يفوقنا نحن الاثنان معاً جسماً وقدرة، كنا ضعيفين أمام قوي، حاولت أن أفصل بينهما لكن عبدو نهرني والشرر يتقادح من عينيه طالباً مني أن أمسك يديه ففعلت على الفور وكأنني جندي يمتثل أوامر سيده دون تردد عندها انغرست أصابعه في رقبة الخصم مانعاً عنه الهواء، حاول تخليص يديه مني دون جدوى وعبدو يزيد من ضغطه بقوة أكثر من ذي قبل، للحظات بدا خصمنا

وكأنه يحتضر إذ بدأ الدم بالخروج من فمه ثم تهاوى مستسلماً فهبطنا فوقه، كاد كل شيء ينتهي لولا أن جاءت الصدفة بأحد رجال البلدة الذي خلصه من أيدينا وطلب منه أن يهرب بعد أن قبض على عبدو لدقائق كي يبتعد أكثر وعندما انتهى من ذلك التفت نحوي وصفعني دون شفقة، كان أثناء ذلك يردد بغضب: «ما دخلك أنت؟ لماذا تحشر نفسك؟..» وعلى وقع صفعاته وألمها كنت وكأنني أعود من غيبوبة طويلة..

في المنزل أكمل أبي ما بدأه الرجل ثم شكره كثيراً ممتناً لصنيعه فلقد أنقذنا من جريمة قتل وبعد أن هدأ أفهمني بأن شقيقة عبدو قد خطفها شقيق ذلك الولد الذي كدنا نقتله وبأن ثأراً ودماً بين العائلتين..

تذكر الآن جيداً بأن عبدو لم يكن يشارك معكم في الصف وكان يرتبك ويتأتئ قبل أن يجيب عن أسئلة المعلم ليتلقى بعد ذلك عدة عصي على يديه لكنه كان في النتيجة يحصل على المجموع التام أو ما يقاربه وهذا ما كان يثير انتباهنا واستغراب المعلم نفسه الذي عزا الأمر أكثر من مرة إلى

العلاقة المميزة بين مدير المدرسة وأبيه حيث تمتد إلى أغنامه التي لم يستطع أحد من أهل البلدة عدها أو معرفة كم من المواليد تنجب كل عام...

كانت بينكم وبين عبدو خطوة أو خطوات عدة استطاع تجاوزها وتجاوزكم بآلاف الأميال أو ربما أكثر من ذلك بكثير، كيف نما وترعرع عبدو خلال سنوات قليلة لا أحد يدري؟.. كثيرون من العصبة التي كناها معه يرجعون ما وصل إليه إلى كلبتهم «ودعه» تلك التي كانت كبيرة الحجم ويضرب المثل في قسوتها وشراستها فقد شوهد غير مرة يضطجع ويشارك جرائها الحليب، قالوا بأنه استساغ حليبها لدرجة عافت معها نفسه حليب الأغنام التي يملكون ولهذا صار مع الوقت يطرد جرائها ويستفرد بضرعها لوحده وقيل حنت عليه وتعاطفت معه وقيل حكم الرغيف مر ومن يملكه يتحكم بغيره ولو أنني شخصياً استبعدت أن تكون «ودعه» من الكلاب التي على هذه الشاكلة فقد كانت من حيث القوة قادرة على تمزيق أي واحد منا إذا ما اقترب من «حوشهم» دون وساطة رفيقنا

عبدو الذي حاول بعضهم في المدرسة أن يطلق عليه ابن «ودعه» لكن قوته التي ظهرت للجميع والتي استمدها من والدته أخافتهم وأخرست أفواه من سولت أنفسهم ذلك فابتلعوا ألسنتهم وسكتوا ..

في أحد الصباحات فاجأني الفراغ الذي حدث أمام غرفة ذوي عبدو المستأجرة إذ لم أجد خيمتهم هناك وكأن ريحاً عاتية اقتلعتها باكراً ومضت، تقدمت غير مصدق، لم يحذرني هرير الكلبة من ذلك، كان صمت مطبق وهدوء مخيف يسيطر على المكان ذاك الصباح لأعود وفي الروح حزن على عبدو الذي رحل ليلاً مع ذويه على غفلة من أهل البلدة حيث حملوا أغراضهم وكنسوا حتى زبل مواشيهم وساقوا أغنامهم ثم صوبوا جهة الشرق لتنقطع أخبارهم عنا طويلاً.. بعدها سمعنا عن عبدو كثيراً وحين رأيناه أول مرة على شاشة التلفاز كان فصيحاً وواثقاً من نفسه، لم يكن يتأتئ أو يتلكأ في كلماته عندها رددنا معاً كأننا جوقة جماعية ابن ال.. ثم عضضنا على شفاهنا حتى أدميناها كي لا تكتمل العبارة ...

«ديليت»

«مرقت الغريبة عطتني رسالة

كتبها حبيبي بالدمع الحزين

فتحت الرسالة حروفا ضايعين»

أغنية يصدح بها صوت السيدة فيروز ويطرب لها قلبي شوقاً وفرحاً وتتوه معه يدي وأصابعي المرتجفة وهي تتلمس حزامي كي تخرج منه مهتافي المحمول بينما تتابع كلمات الأغنية:

«ومرقت الأيام وفرقتنا سنين

وحروف الرسالة محيها الشتي»

ثم صوت صفير متتالٍ معلناً انتهاء وصول الرسالة.

متلهفاً أفتح صندوق الوارد، أقرأ:

«أحبك إلى الأبد فلا تنساني»

أتمعن جيداً اسم علاء المدون فوق الرسالة، تخرج من صدري زفرات حرى، أتمنى لو أنني أبقيت أسمها كما هو، علا هذا الاسم الذي يهز كياني ويزلزله ولكن رقابة زوجتي الصارمة تمنعني من ذلك، أبدو وكأنني أودع تلك الكلمات إلى الأبد أو كأنني سأتخذ قراراً صعباً، أنتهي من ذلك سريعاً أضغط على ال «ديليت » هيا وبلا وجع الرأس ...

أكتب راداً على ما جاءني :

«النسيان غير وارد في قاموسي لأنك تحتلين القلب وتتربعين على عرشه وأنا أتلهف شوقاً لرؤيتك»

.. أضع اسم علاء وأضغط زر الإرسال، تغطي الشاشة عبارة سيتم الإرسال على مرحلتين، دون تردد أضغط موافقاً كي تطير رسالتي إلى علا تلك التي شغلتني طيلة الأيام الفائتة، طبعاً لا أنسى ال «ديليت»، مريح جداً هذا ال «ديليت»، طريقة ممتازة أتخلص بواسطتها من أية أدلة قد تجدها زوجتي ..

مجـدداً يـصدح صـوت الـسيدة فـيروز مبـشراً بوصــول رسالة أخرى، آه من رسائلها الجميلة التي تجعلني أبدو وكـأنني أتـذوق الحـب لأول مـرة في حيــاتي، ولكــن مــن هــي تلــك الفتاة يا ترى؟.. أين رأتني؟.. في المكتب أم في الـشارع.. أم؟.. ربـما في إحـدى الحفـلات التـي تقيمهـا نقابتنـا.. ربـما فأنـا أبـدو فيهـا متحـدثاً بارعـاً وأنيقـاً، ربـما يكـون مظهـري قـد خـدعها.. هي لا تعلم بأنني كما يقولـون «من بـرا هـلا الله هـلا الله ومـن جوى يعلم الله».. هذا ليس مهـماً، المهـم بـأنني لا أزال مرغوبـاً ومحببــاً لــدى النــساء رغــم الــصلعة التــي تظهــر في مقدمــة رأسي والتجاعيـد التـي تظهـر عـلى وجهـي وانحنـاءة جـسدي الواضـحة إلى الأمـام، هـذا لـيس مهـماً، سأنـسى ذلـك لا بـل سأمسحه من ذاكرتي.. تمنيت لو يركب على جسد الإنسان مثل هذا الـزر حيـث ضـغطة واحـدة وكـأن شيئاً لم يكـن، لا تجاعيـد ولا أحزان ولا متاعـب، أهـز بـرأسي حزنـاً عندما يبـدو لي هـذا الأمر صعباً لا بل مستحيلاً طالما أن العمر في تناقص ولا سـبيل للعودة إلى ما فات.

بتمهل أقرا الرسالة.. هه.. تريد أن تـراني وتركـت لي تحديد الموعد المناسب، آه ما أسعدني بذلك، هذا الكلام ألذ عـلى قلبي من العسل، منذ شـهور وأنـا أسـعى لهـذا الأمـر، كانـت خلالها تعتمد الرسائل للتواصل معي ونادراً ما كنا نتحدث حتـى أنني لا أعرف سوى اسمها «علا»..

أعـرف عـدداً مـن الفتيـات بهـذا الاسـم ولكننـي لا أتـذكر ملامح أيـة واحـدة منهن.. عـلا مـن؟.. مـاذا تعمـل؟.. مـا هـو شـكلها؟.. هـل هـي حلـوة؟.. أسـئلة كانـت تـتملص دائـماً مـن الإجابة عنها وتطير عقلي برسائلها الجميلة..

كنـت أريـد أن أطفـئ النـار التـي اشـتعلت في صـدري مـن جـراء تلـك الرسـائل وكـم وددت أن أقـول لهـا بـأنني أحببتهـا وتلهفت كي أشبع فضولي وأراها ولو لمـرة واحـدة عـلى الأقـل، لكنهـا غالبـاً مـا كانـت تنهـي المكالمـة بيننـا بكلمـة ظـروف.. ظروف!.. أنا أيضاً لدي ظروف.. ديليت لرسالتها أيضاً..

أكتب على صفحة الصادر:

«أراك غـداً، الـساعة الـسادسة في الجهـة الـشرقية مـن الحديقة العَامة».

أضغط على ال «ديليت» بعد أن أتأكـد مـن وصـول رسـالتي إلى علا.. نعم هكذا أفضل ولتنبش زوجتي في هـذا الجهـاز كـما يحلـو لهـا، سـتجلس قبـالتي وأنـا أتنـاول طعـام الغـداء كـما هـي عادتها في كل يوم، تقرأ أولاً صندوق الوارد ومن بعـده الـصادر ثم تعرج كي تستعرض الأسماء فإذا مـا شـاهدت اسـماً غريبـاً أو جديداً لا بد أن يلفت انتباهها وتسألني عنه..

منذ مدة توقفت طويلاً عنـد اسـم عـلاء.. قلـت لهـا بعـد أن شربت ما في الكأس دفعة واحدة كي تندفع اللقمة التـي علقـت في حلقي إلى جوفي:

- علاء المجيد، صديقي في النقابة ألا تعرفينه؟..

- بلى أعرفه جيداً ولكن هذا ليس رقمه.

- علاء وشيطنته.. كل يوم له رقم جديد.

ثم نهضت مكتفياً بعـدة لقـيمات لأكتـب إلى عـلا مـن الحـمام بألا تفتح جهازها كي ترد على أي رقم غريب..

رنة قصيرة يصدرها جهازي، لابد أن علا تأكد الموعد بتلك الرنة، ولكن ما المانع من ال «ديليت» لاسم علاء، لا أريد أن أثير انتباه زوجتي بأي شيء حتى يمضي ذلك الموعد على خير على أقل تقدير..

ابتسم بمكر وأنا أمسح المكالمات التي لم يرد عليها، تزداد ابتسامتي لتغدو أكثر اتساعاً، يا لذكائي وخبرتي في انتقاء ذلك الموعد معها.. السادسة دون زيادة أو نقصان.. أصبت عصفورين بحجر واحد بهذا الموعد، ففي هذا الوقت أي قبل الغروب يكون عدد زوار الحديقة أقل بكثير مما هي عليه في وقت ما بعد الغروب، ثم أن زوجتي ستفرح كثيراً عندما أبلغها بأن لدي عمل إضافي ومن باب الاحتراز والحذر وتجنباً للمشاكل سأجعل صديقي علاء المجيد يجلس بدلاً مني في المكتب ويرد على الهاتف ويبلغني عن أي طارئ يحدث، هو ذكي ويعرف كيف يتصرف، أمس عندما سألته عن رقمه الذي شاهدته على شاشة جوالي سابقاً تملص من سؤالها وقال بأن لديه أرقاماً عديدة وهذا الرقم بالذات

خصـصه للأصـدقاء المقـربين ولا يـرد مـن خلالـه عـلى أرقـام لا يعرفها.. ثم ماذا يهمها هي من أمري غير النقـود؟.. صرت أشـعر في أغلـب الأحيـان بـأنني عامـل لـديها.. لا هـذا غـير صحيح، أنا مستخدم لديها وأعمل دون أجـر.. أقبض الراتـب من المحاسب عند أول كل شـهر لتقبـضه مني في المنـزل وهناك تـدقق عـلى كـل كبـيرة وصـغيرة فيـه، الزيـادات، الحـسميات، الإضـافي وغـيره ثـم ترمـي لي في نهايـة الأمـر مـا يكفـي ثمنـاً لسكائري وأجرة ذهابي وإيابي من وإلى العمل..

سـتفرح صـباحاً بـساعات العمـل الإضـافي التـي سـأنفذها هذا اليوم، أنا متأكد من ذلك ولابد ستعدني بوجبة دسمة حـين أقبضها لكنها لن تفي بذلك، هي مـشغولة عني دائـماً بملاحقـة شؤون المنزل وبمأكل الأولاد والبنات وملبسهم وإن تـذكرت أمـري لابـد أن ترسـل أحـد الأولاد أو البنـات كـي يـضع الغطاء على جسدي أو يشده إن كـان قـد تراخـى قلـيلاً عنـه ثـم تقضي ما تبقى من وقتها بالعبث بجوالها الحـديث أو بـالجلوس خلف الحاسوب الذي أتقنت أغلـب برامجه وأصبحت مدمنـة عليه في الآونة الأخيرة ..

إذاً «ديليت» لها ولأولادها وبناتها ولهذا المنزل الذي غدوت مع مرور الأيام كقطعة من أثاثه..

علا هي من سيعيد شبابي المفقود، هي التي أحببت كلماتها وصوتها، هي من دخلت قلبي قبل أن أراها، سأبني مع علا عشاً جديداً وستكون فيه عصفورة حياتي، أعيش معها هانئاً طوال عمري أو ما تبقى منه ..

هكذا كنت أحدث نفسي وأنا أقطع الحديقة العامة بخطوات مديدة متجهاً إلى الجهة الشرقية منها.. جئت قبل ساعة من الموعد ليكن، أعتقد بأن علا تستحق ذلك، علا تستحق عمراً من الانتظار وقد فرشت الأرض من تحتي بكلماتها الناعمة وغطتني بضمة من الأزاهير ثم طيبتها بأنواع مختلفة من العطور..

عند أول منعطف في هذا القسم من الحديقة سأنتظرها وعند أول منعطف تيبست قدماي وأنا أشاهد علا ابنتي الكبرى تجلس إلى جوار والدتها على مقعد خشبي هناك ..

- علا ! أنت من كـان يمـزح معـي إذا ؟.. هكـذا أردت أن أقـول لكـن لـسانِي كـان جافـاً متيبـساً كقـدمي وعنـدها أومـأت زوجتي برأسها أمرة كي أتقـدم.. لم أستطع فتقـدمت هـي ومـن خلفها ابنتي عـلا.. كانـت تعقـد حاجبيهـا وكانـت وهـي تتجـه نحـوي تـضع إبهـام يـدها اليمنـى عـلى راحـة يـدها اليـسرى وتـضغط بقـوة وكأنهـا تمـسح شـيئاً عالقـاً عليهـا وكانـت تـردد بصوت خافت:

«ديليت، ديليت»

بقيت حائراً كالأبله أمـام نظراتهـا المتحديـة الغاضبة حيـث أشارت بأصبعها نحوي بعصبية لم أعهدها منها قبلاً ثم قالت:

- أنت خائن .. «ديليت» .. طلقني .

القصة الفائزة بالمركز الثاني في مسابقة
ثابت بن قره الحراني للعام ٢٠١١م

قـهـوة

أغـلي قهـوتي الـصباحية وعينـاي تجوبـان المطـبخ بنظـرات اسـتطلاعية سريعــة لأعــرف أول شيء ســأبدأ بــه عمــلي لهذا اليوم..

أحتار من أين أبدأ، صحون هنا وكؤوس هنـاك و«طنـاجر» وملاعق في أماكن أخرى، ازدحام المطبخ يشبه ازدحـام زوارنـا عنـد كـل مـساء.. أواني الطـبخ غـير المغـسولة تـذكرني بوجـوه زوارنا المقنعـة بغـير مـا تـضمره، بعيـونهم المتلصـصة باحثـة عـن كـل عيـب وعـورة، بأسـنانهم التـي تمـضغ الطعـام كـما تمـضغ ألسنتهم سيرة أي غائب منهم..

يتوقف بـصري عنـد زاويـة المطـبخ الـشمالية لأكتـشف بقايـا قطع الخبز التي نسيتها فانتـشرت هنـاك، بعـضها تبلـل وبعـضها الآخر بقي جافاً..

أطفئ النار تحت القهوة وأحاول أن أبدأ يومي بلملمة بقايا قطع الخبز وعندما اقترب أكثر أرى فرناً وأرغفة ساخنة تخرج منه، أشتم رائحة خبز شهي.. أدير البصر فأرى فراناً يخلط الدقيق ويغش.. تتغير الرائحة، تتبدل سريعاً ليمتلأ أنفي برائحة العفن الأبيض..

أكمل لملمة بقايا قطع الخبز فتفاجئني ضحكات أصدقاء زوجي وزوجاتهم «صديقاتي» كما أتوهم، أخال نفسي أندمج مع أحاديثهم ومع حرارة اجتماعاتنا ودفئها، أدير البصر لأرى خياناتهم وكذبهم ونفاقهم، تتحول أصواتهم إلى نعيق بوم وحميمية جلساتنا إلى ثلج حارق..

العفن بيدي أحاول أن ألمه فأكاد أسمع صوت الباعة وهم يبيعون اللحم الأبيض بأبخس الأثمان عندها أرى أمي، أختي، ابنتي، صديقاتي كلهن بدور البغاء، أنظر إلى بقايا الخبز الذي تمسكه يدي فإذا به يمتلأ بالعفن الأبيض المخضر..

أحاول أن أكمل ما بدأته لكنني أرى العفن يتحول وينقلب سريعاً إلى اللون الأسود ليملأ خبزي ويمتد ليدي.. أركض

نحو صنبور الماء لأغسل ما علق بيدي لكن العفن انتشر بكل أرجاء المطبخ وبدأ «يتعربشني»

أمد يدي كي أخذ قهوتي وأنسل هاربة من العفن وإذ به قد غطاها، أهرول هنا وهناك محاولة الفرار ولكن إلى أين والعفن الأسود يمتد ويزحف بسرعة دون توقف ..

أصحو على يد زوجي وهي تهزني بعنف كي أنهض وأعد له قهوته الصباحية قبل أن يغادر إلى العمل.. أقف مذهولة باحثة عن العفن وسؤال وحيد يدوخ رأسي منذ سهرة البارحة هل العفن يملأنا أم نحن العفن؟...

خيبـة أمـل

هنـاك في مكـان بعيـد.. حيـث يـصل نظـري إلى إحـدى الشرفات كانت تطل فأرى عينيها ترقبان الطريق..

لا بد أنها تنتظرني أنا الذي كنت أعيش على هامش الأشياء، أنـا الـذي لم ينتظـره أحـد يومـاً بـل كنـت ظـلاً أو بقايـا ظـل.. أضحك في داخلي، أهمس لنفسي:

- جاء اليوم الذي تحلم فيه.. هاأنت تجد من يعد خطواتك، ينتظرك .. لحظة بلحظة .

.. آه .. آه يا للحياة عندما تقبل عليك وتضحك لك..

أدركت أخيراً بأنني تعجلت وحكمـت عليهـا بأنهـا ظالمـة.. أتـابع خطـواتي عـلى الطريـق الـذي أمـضيت زمنـاً مـن عمـري

متسكعاً فيه.. طريق طويل، طويل يمتد متعرجاً كأفعى لا تعرف السير المستقيم.

أقترب قليلاً.. تضطرب أنفاسي.. أكاد أطلق لساقيّ العنان.. أطلق الطفل الذي يختبئ في داخلي وكم تمنيت أن أفعل ذلك، أركض ولكن إلى أين؟!..

أزجر نفسي: أهدئ يا رجل ما هكذا تكون الرجال .

محاصر أنا.. مقيد بسلاسل تكبل كل أطرافي جميعها تقول لي: «عيب!»..

أحاول أن أصل بسرعة بخطوات متزنة.. أغمض عيني لعل جزءاً من الطريق ينتهي أو لعل حلماً يداعب مخيلتي ولكن الحلم في مثل حالتي يصبح ضرباً من المحال ..

ها أنا أقترب وتزداد دقات قلبي ولكن لماذا؟.. اليوم سأخرج من جلدي، سأحطم كل الأغلال وليذهب خوفي وترددي إلى الجحيم.. سأبدل كل رثٍّ قديم بائس وحزين.. أستبدله بجديد لا علاقة له بالماضي ..

أخفف من خطواتي، أتمعنّ وجهها لكنها تنظر بعيداً.. تتوقف قدماي.. أمسح بعيني المكان وكأنني تحولت في لحظات إلى سارق يريد أن يتأكد من خلو المكان قبل أن ينفذ ما خطط له.

أعاود النظر نحوها لكنها لا تراني، كانت عيناها تهيم في الأفق وأنا ما زلت على الطريق.. أجر قدميّ فوقه هذا الذي حسبته اليوم صديقاً نسي كل شيء فإذا به يعاديني ولا يتنازل عن عداوته لي.

تداعيات بيدق

منذ وجدتُ وأنا في هذا المكان فوق هذه الرقعة التي تنقسم إلى مربعات كثيرة لا أعرف عددها.. تتأخر عليَّ اليد التي تحركني، ربما لا تشعر بالتعب مثلي، لأنها بالتأكيد ليست محصورة في مربع مثل هذا الذي أقف فوقه لا يسمح لي بتجاوزه يميناً أو يساراً، مُحرمٌ عليَّ التراجع نحو الخلف والحجة التي تساقُ دائماً أنني جندي ..

جندي!.. أعرف هذا.. هذه الجندية تفرض عليَّ أن أسير في طريق مستقيم لا يعرف التعرج أبداً ...

أيُّ طريق لئيم هذا الذي أسلكه؟!.. وأيُّ قدر هذا الذي كُتب عليَّ أن أعيش هذه الحياة؟!... من رسم هذه الحياة يا ترى؟!..

أحياناً تحركني اليد فأصطدم بشيء في المربع الذي أمامي من الزاوية فأحسُّ بأنَّ طريقي قد تغير قليلاً..

الأشياء التي أصطدم بها أحسها أحياناً بحجمي وأحياناً أكبر مني بكثير ....

لا أدري لماذا أشعر بأنني رخيص عند هذه اليد؟!.. هي تدفعني دائماً من أجل هدف لا أعرفه.. أتوقع أنها تريدني أن أقتل فقط.... لا أدري.. لكنني سرعان ما أهوي صريعاً بضربة من الأمام أو الجانب أو بطعنة من الخلف عندها يكون موتي ولمَّ لا؟.. فأنا دائماً في الأمام رأس حربة وكبشُ فداءٍ.

الأخطار تتهددني من كل الجهات.. الذين من خلفي والذين أظنهم رفاقي وأصدقائي أشعر أحياناً بأنهم يفرحون بموتي.. أسمع همساتهم.. أصواتهم اللاهثة وهم يعبرون مُسرعي الخطى فوق جثتي وأنا في الرّمق الأخير حيث تقبض عليَّ يدٌ غير تلك التي تحركني ولم يسبق أن رأيتها

وترميـني بعيـداً مـع آخـرين لا أعـرفهم غـيرُ آبهـةٍ بـآلامي وجراحي التي تنزف ...

أعتقـد أن مـرورهم الـسريع نـصرٌ واعتقـده هزيمـة.. لكنَّ المرور فـوق جثتي أمـر محتـوم.. هـل قـدر عـلى البيـادقِ أن يمـر النَّـصر والهـزائم مـن فـوق أجـسادها؟! دون أنْ تجنيَ شيئاً لذاتها..

مـرةً وصـلـت إلى آخـر مـا تريـدني هـذه اليـد الوصـول إليه.. عرفـت ذلـك لأني لم أتقـدَّم بعـدها حيـث كـبر جـسمي كثيراً وأصبحت أضرب في كـل الاتجاهـات.. آه.. آه.. القـوة تـدفع صـاحبها إلى الهجـوم، كنـت أهـاجم مـن حـولي يميناً ويساراً، أماماً وخلفاً، أبطش، أزمجر ومع ذلك أبقى رخيـصاً عنـد تلـك اليـد فهي تلقيني - عـلى الـرغم مـن كـبر جسمي - في أشياء صغيرة.. هـل الـسبب أنني منذ البداية كنت صغيراً ؟!..

أكاد أختنق أموت في كل لحظة وأنا في هذا المربع مثل أي سجين تفصله عن العالم الخارجي جدرانٌ سميكة.. قضبانٌ لا تفتح إلا بأمر ..

يقتلني هذا الانتظار ...

لو تمكنت من إيجاد رفيق يؤنس وحشتي، نتسامر، نتسلى معاً، أشكي له همي لِمَّ شعرت بهذا التعب والضجر ..

لو سنحت لي الفرصة لأتحدث مع هؤلاء الذين أتقاتل معهم، أصطدم بهم عندما تشاء تلك اليد.. الشبه بيني وبينهم كبير لولا تلك الألوان المختلفة بيننا، أكاد أجزم أحياناً بأننا جبلنا من نفس الماء وبأن من صنعنا هو تلك اليد التي تحركنا، رغبت أن أحادثهم.. أتكلم معهم، أسألهم عن سبب هذا الصراع أو القتال، عن هذا الموت؟!.. لا ينتهي ولا يتوقف يحيط بي من كل الجوانب، علهّم يعرفون الجواب ..

تمنيت أن أكون عصفوراً يحلق.. يرتفع في السماء فوق هذا العالم.. ينتقل من شجرة إلى شجرة، ومن بستان إلى ساقية..

أزقزق مع العصافير، أرافقهم وأعيش معهم فصول السَّنة..
لكنَّ حلمي يتوقف، يموت عندما أتخيل نفسي قد سقطت برصاصات صياد لا ترحم.. عندها لابد أنْ يكون مصيري الموت سواء كنت مشوياً أو مقلياً في بطن أحدهم أوقد وضعني في قفص فوق أحد الشبابيك أو الأبواب أو داخل أحد الصالونات وزيادة على ذلك مطلوب مني أن أغني وأطربهم بصوتي والنتيجة حتى في الحلم واحدة إما الموت وإما القفص المحيط بي مثل هذا المربع اللعين ...

لذا عليّ أن أعيش الانتظار بكل دقائقه وتفاصيله المؤلمة فأنا لا أملك وربما لا أملك في المستقبل غير ذلك.

«قاق» كانت ليلتي الأولى

«قـــــــــاق، قـــــــاق» صوت يزعق به طائر أسود يقف على إحدى الشجيرات المحيطة بالمنزل، يعشش فيك الصوت ليلاً ونهاراً، يزعق داخلك ويمزقه، يسحق حياتك ويجعلك في حزن أبدي، غراب أنت يا رجل تنبش التراب وتدفن فيه كل الذين أحببتهم وتبقى وحيداً تنذرُ بالشؤم والخراب، تصفعك الحقيقة عارية من دون رتوش، تدمي وجهك وتترك ندوبها على الروح، تواجهك بجبنك وهزائمك وخيباتك، وحيداً تلفظك العشيرة، والأصدقاء تخلوا عنك، ولا حبيبة تؤنس هذا الخراب الذي يؤثث داخلك، وسوسن أو سوسنتك طار عطرها وذهب شذاها، هجرتك بعد طلقة أخيرة أصابتها من النافذة، تركتك وكأنها لم تعش معك لسنوات طويلة متنكرة لكل ما بينكما بعد أن كرهتك ومقتت واقعك المزري معك، انظر حولك تجد بيوت بلدتكم قد

ارتفعت شامخة مثل أبنية المدينة وربما أفضل بديكوراتها وزخرفتها وألوانها المختلفة أما أنت فما زلت وتراً بين الجلد والعظم ها أنت أخيراً قد عدت مع هذا المساء إلى هذه البيوت التي تشبه الخرائب تنعب بصوتك الأجش في وسطها، الخرائب في داخلك لم تغادرها حتى وأنت في غربتك، البنات والأولاد كبروا خلال سنوات غيبتك القصيرة فلماذا عدت؟ أمن أجل قبر دُفنت فيه عليا في غيبتك؟ أم من أجل الأولاد والبنات؟ أم لأنك فاشل لا تتقن أي شيء؟.. نام الجميع وبقيت وحيداً تتأمل الجدران وتراجع حساباتك وتحاول لململة روحك.. فاشل منذ تسلمت الأرض أصبحت لا تأتي بهمها.. فاشل كلمة ترافقك دائماً، يفاجئك بها والدك حسان المطور بعد كل تعب وشقاء، تتخيله يتمدد على فراش مرضه عند زاوية الغرفة حيث الشباك المطل على الطريق واضعاً يديه خلف رأسه ويحدق فيك.. وهل كانت تنتج قبلي ذهباً؟..

يلوب السؤال حائراً فلا تسمع إلا صوت سعالك ليبقى استفسارك حبيساً في داخلك لا تجرؤ على البوح به خشية أن ينهض الرجل ويكسر تلك العصا التي يضعها إلى جانبه عليك..

لو لا الخوف لقلت له بأنك مريض منذ خمسة عشر عاماً وأنا الذي أعمل، أنتم عائلة كبيرة والحمل كبير عليّ. أمي عليا بالقرب منه تتأملني، ترقب أي حرف متمرد خارج عن سلطتها وسلطته لتضع على الجرح ملحاً بقولها: «لا خير فيك، طقعان لا يصطاد الغزلان» تلتفت نحو أبي وتضيف بعد أن تهز برأسها متوعدة: «دعه الآن، في الصباح لنا حساب آخر معه، من أجل خاطري فقط، الصباح رباح».. أين هو الصباح وهذا الليل طويل وممتد والجميع يدور حولي وكأنهم في رقص لا ينتهي، شقيقاتي «تهاني وسماح وريم» وأشقائي «سالم وسامي ومحمد» ومعهم أبي وأمي عادوا إليّ في تلك اللحظات من رحيل طويل لا عودة منه ولا رجوع، بدر شقيقي الأكبر بقي عابساً وجالساً في مكانه، من يومه جاداً ولا يحب الرقص والحفلات رغم طيبته وبساطته، بينما شقيقي ناصر كان يضحك حاول التقدم نحونا لكنه تعثر بخطواته أو ربما بقنبلة انفجرت به ذات فجر وأفقدته البصر، اعتدل وتوازن قليلاً وقد كاد يسقط، وأنا أكاد أسقط من شدة التعب والإعياء، الأولاد في الداخل ناموا باكراً وتركوني مع

ذكريات تعبرني دون توقف، في بداية الأمر فرحوا لقدومي واحتفلوا به لكن ذلك لم يدم لأكثر من ساعات ثم بعد ذلك انصرف كل منهم إلى شأنه يبدو بأنهم اعتادوا غيابي ولا يريدون أن يكون لي مكان بينهم أو ربما تذكروا أمهم سوسن التي جاءت إلى المنزل في غيبتي لتساعد والدتي أثناء مرضها الشديد وتحضر وفاتها وعندما علمت بمقدمي غادرت المنزل على الفور، سوسن نسمة عذبة داعبت حياتي وحركت قاعي الساكن ثم مضت دون تردد أو التفات للخلف، معها حق التمس لها العذر دائماً وهي ابنة المدينة التي قامت بأشياء كثيرة يقوم بها أبناء الريف بدلاً عني وتحملت الشقاء طويلاً دون فائدة أو بارقة أمل تبيض أفقي الملون بالقتامة والسواد، أيامها كنت أتمنى حقيقة أن تكون الحياة خصبة مثل بطنها وقد بقيت لسنوات طويلة تواسيني وتشجعني من أجل الصمود والاستمرار ليكون الغد أجمل داخل منزل حديث غير تلك الخرائب التي نسكنها نستطيع فيه أن نستقل ونعيش بكرامتنا لكن الآمال تبخرت ولم نحقق منها شيئاً فماذا كنت سأفعل أو سيفعل موظف صغير مثلي بأفواه تكاثرت ومصائب

تكالبت واحدة تلو الأخرى؟ وأطفالي ازدادوا عدداً بوفاة أخي ناصر ومن قبله زوجته فوزية، عندما استلفت من الحكومة قرضي الأول لأبني فيه غرفة واحدة تكون بداية لوطن صغير أستقر وأهدئ فوقه، مرضت فوزية، دون مقدمات أو أعراض مسبقة سقطت، المشفى الحكومي لم يستقبلها لعدم وجود أجهزة تنفس اصطناعية وفي المشفى الخاص كانت نهايتها بعد عشرة أيام دفعنا فيها كل أملنا ببناء وطن لا يترنح أمام الريح لكنه ضاع معها وعندما انتهينا من تسديده واستلفنا آخر مرض ناصر ولم يكن أمامي من مجال غير أن أنفقه على مرضه، المنزل حلم بسيط ومعادلة كانت من الصعب أن تحل أو تتحقق طالما بأن هناك ما يمنعها ويقف لها بالمرصاد، شيء غامض أحسه ولا أعلم ما هو بالضبط كان يفرق بيننا ويمنع تحقيق السعادة التي كنت أصبو إليها مع سوسن رفيقة الدرب الذي افترقت عنه وتركتني وحيداً فوق ثوب بال لأعالج وعورته وأحاول ما أمكن ترقيع تشققاته وحفره دون جدوى، بدأ ذلك الفراق من يوم وصلت فيه عصبيتها على أولادي وأولاد أخي إلى درجة لا توصف ثم

جاءت أمي لتكحلها وعندما وصلت لأقف قاضياً بين المرأتين، لم يعجبهما الذي حكمت به وتعالى الصراخ في المنزل من جديد لم يسكته إلا صوت الرصاصة التي عبرت النافذة لتخترق كتف سوسن ولتسقطها أرضاً ويتحول صراخ أمي إلى بكاء بعد أن انضم إليها جميع الأولاد في المنزل وفي الشارع كان ثمة من يركضون نحو الأشجار المحيطة بالمنازل عند تخوم البلدة، في الشارع كانت معمعة وعويل نسوة وكان موت.

عندما خرجت سوسن من المشفى وقد تماثلت للشفاء طلبت مني أن نذهب معاً إلى منزل أهلها كي نطمئن عليهم بعد الحوادث الأخيرة التي طالت الكبير والصغير في بلادنا حيث وجدنا فاجعة قد حلت على ذويها إذ إن شقيقها الأصغر قد أصابه عيار ناري في الصدر فأودى بحياته وهناك بكيت مع من بكى على شقيقها وغيره ممن ضاعوا في زحمة الشعارات والمطالب والذين وقعوا بين المطرقة والسندان، كانت سوسن بعد أيام العزاء التي قضيناها عند ذويها في حالة يرثى لها من الغضب وشدة الحزن وعندما أردت أن نعود إلى البيت بتت أمرها وطلبت مني أن أطلقها فوراً

فرفضت لكنني حينما رأيت الخناجر تلمع في أيدي أشقائها وافقت على الفور، كانت الدماء تغلي والناس يتعاملون مع المحنة بعاطفية دون الرجوع إلى الأسباب وتحكيم العقل، أشقائها لمحوا إلى أنني رجل موظف لدى الحكومة وربما أكون متواطئاً مع من قتل أو ساهم في القتل وكرامة لأولاد شقيقتهم خرجت سالماً من العقاب، سوسن قالت قبل أن أغادر بأنها كرهتني كرهاً يعادل كره العمى الذي كان عليه شقيقي ناصر يوماً لأنني رجل بارد وليس في رأسي ناموس وإلا ما كنتُ جلست طيلة فترة علاجها لاطئاً في المنزل بينما غيري يقف في الشارع.. حاولت جاهداً أن أفهمها بأنني لست كما تظن لكنني أخاف ممن سيأكل خبزنا ويترك لنا الرباط كي نلفه حول البطن كزنار للزينة ومن سيشرب ماءنا ويترك لنا رخاوة الطين نتخبط فيها لكنها صمَّت أذنيها عن سماع ذلك..

أنا وسوسن جمعنا الحب في يوم من الأيام وجاءت السياسة كي تفرقنا، السياسة في مجتمعنا لعبة كريهة تفرق ولا تجمع، الحب والتسامح وحدهما من يجمع كل القلوب المتنافرة فأي لاعب محترف ذاك الذي أغوى خطواتنا كي تسقط في شباك

العنكبوت؟.. أقفزُ مذعوراً من غفوتي كي لا تحرقني النار وحين أفيق لا أجد حولي لا ناراً ولا دخاناً فأعود مجدداً إلى ما كنت عليه فأرى النار مشتعلة والمطحنة تحترق ونعاس شديد مثل غيبوبة يسيطر على جسدي ويمنعني من المشاركة مع من يشاركون في إطفاء الحريق، تذكرت كل شيء لاحقاً ففي تلك الليلة وأنا أقوم بحراستي تلقيت ضربة على رأسي من الخلف ليقوم من ضربني ومن معه بحرق المطحنة وإتلاف المال العام، موظف من الدرجة الثالثة كنت ليس لي علاقة بالسياسة ولا بما حدث لا من قريب ولا من بعيد، أقوم بنوبة حراستي ليلاً وأحياناً أتوسط لدى رئيس الوردية النهارية من أجل أن يضع اسمي مع العتالين الذين يقومون بنقل الحبوب إلى داخل المطحنة وذلك كي أحصل على أجر إضافي أحاول فيه تحسين دخل أسرتنا الكبيرة لكنني صرت رجلاً مطلوباً بتهمة التخريب والتآمر على الوطن فأصبحت بين ليلة وضحاها بطلاً عند الطرف الآخر وقد كنت قبلاً في نظرهم خائناً قتله واجب وحلال شرعاً، أذكر بأن ذلك حدث قبل حريق المطحنة عندما تم تفتيش كل البيوت في البلدة، يومها استأذنت

المسؤول كي أدخل مع رجاله بعض المنازل القريبة منا والتي لا يقطنها سوى النساء والأطفال وقد غاب عنها الرجال لضرورات كثيرة منها السفر والموت، قلت ذاك الكلام للرجل عن حسن نية ودون أي قصد أخر فوافق على اقتراحي إلا أن بعضاً ممن رآني ظن بأنني أعمل معهم ويجب أن ألقى جزائي وأحاسب، أمضيت شهوراً لا أبيت في المنزل من شدة الخوف ولا أدخله إلا للضرورة الملحة وعندما احترقت المطحنة قررت الهرب، إلى أين؟ لم أكن قد قررت بعد، كان المهم عندي أن أهرب وحسب فالروح غالية والنار من خلفي مشتعلة تأكل كل من تعلق بثيابه، تبقيه كتلة فاحمة تجاوزت الشواء لتنتقل بعدها إلى غيره لتحرقه، هي النار وهذا دأبها وديدنها تحرق وتحرق لتتصاعد منها ألسنة الدخان واللهب ولا تترك خلفها غير الرماد الذي يذرى في العيون آسفاً على ما حدث إن لم تجد من يعالجها منذ ساعة الاشتعال الأولى..

.. بين نار الحلم وحرائق الذكريات تسرقني غفوة لتعود وتلقيني على صحوة ما لم أشتهي بأن أراه وليلتي الأولى في البلدة كانت ثقيلة ولا تطاق أمضيتها بين نعيب ونعيق، بين القلق

والهواجس استذكر كل الأحبة من بقي منهم ومن رحلوا وغادروا إلى غير رجعة وكأنهم لم يكونوا لكنهم كانوا معي سهرنا وتحدثنا كأنهم لم يغادروا وما إن لمحت بصيص الضوء حتى شعرت بأن كابوساً قد انزاح عن صدري بزوال أول ليلة أقضيها في منزلنا القديم، كدت أفرح بذاك الفجر لولا طائر أسود صاح بأعلى صوته قاق وحط عند زاوية المنزل ثم تبعه آخر مطلقاً نفس الصوت عندها وجدتني ودون شعور مني أنعب وأنا أنسل من وسط خرائب الذكريات وأشرق بوجهي صوب المقبرة كي أصافح أمي التي غادرت أثناء غيابي..

فهرس

نبذة عن الكاتب

- محمد حسن الحفري / مواليد درعا / معرية / ١٩٦٨م.
- روائي ومسرحي وقاص.
- عضو اتحاد الكتّاب العرب / جمعية القصة والرواية.
- يعمل مخرجاً مسرحياً.

حاصل على الجوائز التالية:

- جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع العالمي / المركز الثالث / في مجال الرواية للعام ٢٠١١م.
- جائزة الرواية العربية في الشارقة / المركز الثاني / في مجال الرواية للعام ٢٠٠٧م.
- جائزة المزرعة للإبداع الأدبي والفني / المركز الثاني في مجال الرواية / دورة الشاعر يوسف الخطيب للعام ٢٠١٠م.
- جائزة اتحاد الكتاب العرب / المركز الأول / قصة الطفل للعام ٢٠١٣م.
- جائزة البتاني للقصة القصيرة / المركز الأول / قصة الطفل للعام ٢٠١٣م.
- جائزة المزرعة للإبداع الأدبي والفني / المركز الثالث / في مجال المسرح / الدورة التاسعة للعام ٢٠٠٦م.
- جائزة ثابت بن قرة الحراني للقصة القصيرة / المركز الثاني / للعام ٢٠١١م.
- جائزة بصرى الشام للقصة القصيرة / المركز الثالث / الدورة الأولى للعام ٢٠١٠م.

- جائزة شباب سورية / المركز الأول / في مجال المسرح / للعام ٢٠٠٣م.
- جائزة شباب سورية / المركز الأول / في مجال المقالة / للعام ٢٠٠٤م.

صدرت له الأعمال التالية:

- البوح الأخير / رواية / الخرطوم عام ٢٠١١م.
- بين دمعتين / رواية / دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة عام ٢٠٠٧م.
- صندوق الذكريات / رواية / دار العراب / دمشق عام ٢٠١٢م.
- العلم / رواية / دار اليمامة بحمص / عام ٢٠١٠م.
- القرد مفاوض شاطر / مسرحية للأطفال / وزارة الثقافة / الهيئة السورية للكتاب للعام ٢٠١١م.
- ما زال حياً / مسرحية / دار اليمامة / حمص عام ٢٠٠٨م.
- تداعيات الحجارة – الراقصون – مسرحيتان / بيرق للخدمات الطباعية / دمشق للعام ٢٠٠٤م.
- الآلهة خانت عيترون – مسرحية – وزارة الثقافة – مجلة الحياة المسرحية – دمشق عام ٢٠١٥م.

ولديه تحت الطبع عدد من الأعمال الأخرى في مجال المسرح للكبار والصغار وفي مجال القصة والرواية كما لديه عمل تلفزيوني بعنوان / المقاريد / وخماسية بعنوان «سماح» ومجموعة حلقات درامية متفرقة.

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

على الغلاف

أكاد أقول: أن محمد الحفري وُلِدَ ليكون واحداً من كبار الكتّاب، فمنذ يفاعته اجتاح كيانه القلم فكتب الرواية والقصة وسائر الفنون الأدبية الأخرى. حاز عدداً من الجوائز المهمة لسبب وجيه وهو أن الحفري يمتح أقاصيصهُ ورواياته من بيئته الصغيرة والكبيرة، فيوغل في التفاصيل والأحداث يتوجع لأبناء طبقته فيوجعنا معه ويفرح فيفرحنا، ولعل عشقه لقريته ووطنه ساهم في هذا الألق الروحي والنفسي والعقلي الذي كللنا به.

فله ولمن مثله وجد الأدب واخترعت الرواية والقصة.

الروائي: سهيل الذيب